مسيرتى فى البحث

يوسف بن ايليزر

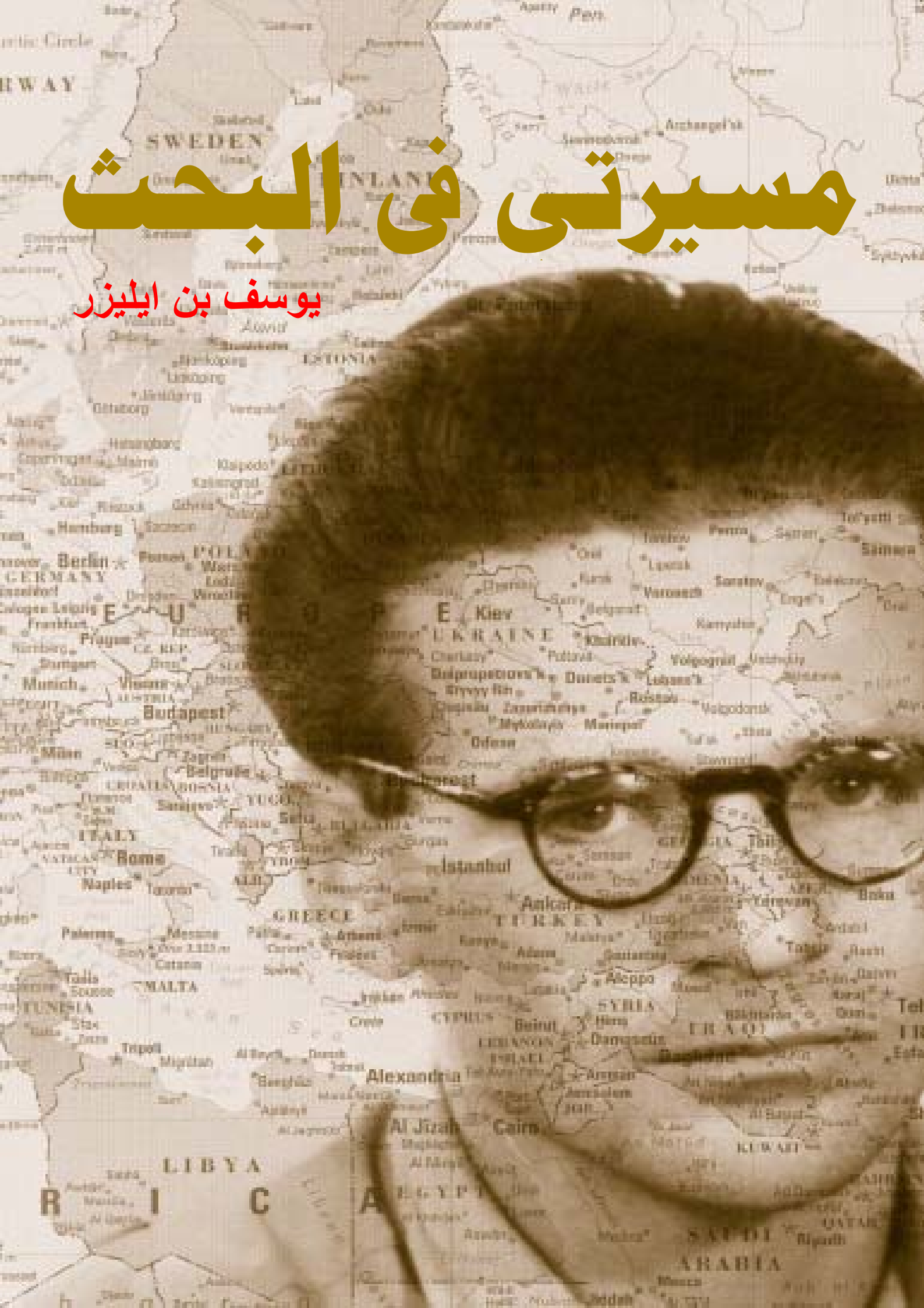

مسيرتي في البحث

يوسف بن ايليزر

يرجى مشاركة هذا الكتاب مع أصدقائكم. ولا تترددوا في إرساله في البريد الألكتروني أو طبع الكتاب كلياً أو جزئياً، ولكن الرجاء عدم إجراء أي تغيير بأية طريقة ما. وإذا رغبتم في عمل نسخاً متعددة منه لتوزيعه على نطاق واسع، أو لإعادة إستنساخ أجزاءاً منه كرسائل إخبارية أو دورية ، فيرجى مراعاة القيود التالية:

* لا يجوز إعادة نشره لمكاسب مادية.

* يجب إدراج عبارة الإئتمان التالية: "حقوق الطبع والنشر لدار المحراث للنشر - سنة 2007. تم إستخدامه بعد الإذن"

هذا الكتاب من منشورات دار المحراث للنشر، في عنوانيه التاليين:

Farmington, PA, 15437 USA

www.plough.com

Robertsbridge, East Sussex, TN32 5DR, UK

www.ploughbooks.co.uk

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2007 by Plough Publishing House

Farmington, PA 15437 USA

في ظل تلك الحيرة والإلتباسات هناك ناساً أبرياءً بقلوبٍ نقيةٍ مِمنْ هم في ضياعٍ، ويرتعشون بسبب ما يرونه، كما يترجون بإلم وأسى متسائلين: "من أين سيأتي عوننا؟... مَنْ هم الذين سيرشدوننا ويُظهرون لنا مثالاً صالحاً من خلال حياتهم، عن طريق سلوكهم؟... من ترانا سنتبع؟ ..." فالصغار والكبار يبحثون عن النور الحقيقي بشوق بالغ، ويتصارعون مع شكوكهم.

ناتان هوفشي Natan Hofshi ، ناشط سلام إسرائيلي (1889 – 1980)

محتويات الكتاب

1 . ذكريات الطفولة / 6

2 . روزفادوف – الحياة في المدينة / 8

3 . الحياة الدينية / 12

4 . لاجئين / 15

5 . النفي الى سيبيريا / 20

6 . سمرقند – الجوع والمرض / 26

7 . أطفال طهران / 30

8 . فلسطين / 34

9 . في إعدادية الزراعة / 38

10 . ويبدأ البحث / 42

11 . القتال من أجل البلد / 47

12 . إجتماع الشملْ / 54

13 . ويستمر البحث / 57

14 . جماعة باريس / 60

15 . إنبثاق الأمل / 65

ملحق / 71

ليو، يوسف، عمي مايلِخ، أمي، جوديث، لينا، جدتي

1 . ذكريات الطفولة

لقد ولدت في يوليو/ تموز 1929، في مدينة فرانكفورت ألألمانيه. وكان والديّ من يهود أوروبا الشرقية والذين كانا قد قدما الى ألمانيا من بولنده، قبل عدة سنوات من ذاك التأريخ. وعلى خلاف اليهود الذين كانوا قد عاشوا لأجيال في ألمانيا، كان والديّ يعرفان الشيء القليل عن التراث الألماني، مثل الكاتب الشهير Geothe أو الشاعر الشهير Schiller. وكان اليهود الألمان أكثر ثراءً، وأفضل تـثـقـيـفـاً، وأشد وطنية؛ إذ كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً حقيقاً من المجتمع الألماني. غير أننا لم نشعر وكأننا كنّا في بـيـتـنـا هناك.

وعندما ولِّدتُ كان عمر أخي " ليو" أحد عشر وأختي " لينا " عشرة. فاصبحتُ الطفل المدلل في العائلة مدة سنة ونصف. وحتى بعد ولادة أختي الصغيرة "جُودِت" كان الإهتمام ما زال ينصب عليّ بسبب حالتي المرضية المستمره. وقد تمكن والديّ آنذاك من تأسيس حياة

مريحة الى حد ما، فلذلك تـلقيت دلالاً مفرطاً وأنا طفل. وكان لدينا الكثير من أقارب والدتي يقاسموننا الدار، وكنت ألعب مع أبناء خوالي كثيراً.

وكان لدى والديّ أشبه بمستودع يتشاركون به مع عمي " حايم سيمحا ". وقد إعتادت البنات الشابات في ألمانيا على صرف أول راتب يقبضنه في تحضير جهاز عرسهنّ ***Aussteuer*** من شراشف وأوجه مخاديد وبطانيات – وأحياناً فراش من الريش – ليوم عرسهنّ المنتظر. وكان كل من أبي وعمي يبيعون مثل هذه الأقمشة الكتانية بالتقسيط الشهري. وسارت أمور العمل على ما يرام حتى أستطاع أقربائي، على ما أظن، من إقـتـناء أملاكاً عديدة في فرانكفورت. لذا كنا محظوظين بالحقيقة عندما جاء النازيون الى الحكم في ألمانيا لأنه كان لدينا السبل التي ساعدتنا على الهرب من البلد.

وذكرياتي عن مدينة فرانكفورت متـنوعة ومتـناثرة مثل: زيارة مثيرة الى حديقة الحيوانات في فرانكفورت، أو فحص طبي مروّع لحنجرتي في مرحلة الصف التمهيدي، أو دكان رائع لبيع السكريات بالقرب من منزلنا.

وأولى ذكـرياتي عن " معـاداة – الساميّة Anti-Semitism " كانت حينما إرتـَعـَبَتْ أمي عندما عُدّتُ مرة الى البيت ومُردِداً التعبير "*Dreckjude*" الذي معناه "يهودي حقير". فكنت على الأرجح، وكطفل ذا 3 سنوات من العمر، قد تعلمته من أصدقائي في اللعب دون علمي بمعناه. بعدئذ شاهدنا من نافذة منزلنا الشرطة النازية SA حين كانت تمر من شارعنا منشدة ً: "عندما سيسيل الدم اليهودي من سيوفنا...ألخ..." فبالإضافة الى خوفي كنت ألاحظ الرعب في أعين والديّ كذلك.

فلما جاء هتلر الى سدة الحكم في كانون الثاني 1933، كان أهلي على إقـتـنـاع كامل بضرورة مغادرة ألمانيا. وفي شهر نيسان ذهب أبي الى فلسطين لإيجاد منزلاً لنا هناك. وكنّا نترقب منه جواباً بلهفة وقلق بالغين؛ وإنتظرنا مدة ثمانية أشهر. لكنه وفي نهاية المطاف لم يتمكن من ضمان رخصة دخول لنا الى فلسطين من السلطات البريطانية آنذاك. وأبلغنا بأننا يجب أن نلتقي معه في بولنده لإحساسه بعدم وجود الأمان له في ألمانيا. وبعد إجتماع بهـيـج لشمل عائـلـتـنا في محطة القطار في جيشوف Rzeshov توجهنا الى مدينة أمي الأصلية روزفادوف Rozwadow حيث قضينا الست سنوات التي تلت.

2 . روزفادوف – الحياة في المدينة

كانت روزفادوف مدينة صغيرة، وكان يقطنها حوالي خمسة آلاف نسمه. وكان في وسط البلدة ساحة – كبيرة على ما أذكر – حيث كان يقام فيها سوقاً أسبوعياً. وكان يمر من وسط هذه الساحة شارع مزدحم. وقلما كنا نرى سيارات تمر من هناك بل أكثر ما كان هو ضجيج مرور العربات والخيل. وكان أفضل صديق لي هو ذاك الرجل الذي كان يجهز والدي بالبضائع، والذي قد فرّ من الشيوعية في بلده جورجيا، وكان فقير الحال. وكنت أحب أن أقضي وقتي معه ومع أسرته. وكم كنت أتمتع في مشاهدته وهو يصنع الحبال بطريقة مدهشة للغايه. وبالإضافة الى ذلك، كان يحكي لنا قصصاً رائعة وبلهجته اليـيدية الفريدة (لهجة ألمانيّة يستعملها يهود أوروبا).

وكنا نسكن في منزل ضمن صف من البيوت التي كانت محاذية لأحد جوانب ساحة السوق. أما في خلف الدار فكان هناك فناء يمتد لمئة أو مئتين متر الى طريق ترابي. وكنا نتقاسم ماء بئر مع جيراننا، وندفيء المنزل بواسطة موقد خشب. ولم يوجد ماء جاري وكان لدينا مرافق صحية خارج الدار. وكل هذه الإمور تبدو بدائية إلا أنها كانت إعتيادية في ذلك الوقت: فالكل عاش بهذه الطريقه.

وكان والدي بائع جملة للسكر وغيرها من السلع الأساسية. فكان يشتري بضائع بكميات كبيرة ويجهز المحلات في مناطق واسعة حول روزفادوف. وكانت البضائع تُخزن في الطابق الأرضي وفي غرف السراديب لمنزلنا. وقد سكنا الطابق العلوي. وغالباً ما كنت أسمعه يتكلم عن أمور المصلحة مع والدتي. ولم يظنّا بأنني كنت أفهم إلا أنني كنت شديد الفضول فيما يتعلق

بأمور العمل، ولقد هَضَمتـُها كلها. وكانت المشكلة دائماً هي السيولة النقديه. فكان الناس يشترون السلع بالتـقسـيط ومن ثم لا يمكنهم تسديد الدفوعات. وكان هذا الأمر مصدر قلق مستمر لوالديّ.

وكان لوالدي أحياناً دكاناً للسكريات أيضاً. وتراني في تلك الأوقات أرتاد الدكان بإستمرار وأقف أمامه طالباً بعض السكريات. وفي أحيان أخرى كنت أذهب هناك على الأكثر لشحذ شيئاً من النقود لشراء السكريات من الدكان الآخر الذي في طرف الشارع. وكانت شهيتي للأكل قليلة حتى أن أهلي كانوا، في بعض المرات، يدفعون لي نقوداً لآكل وجبات طعامي. وكان أبي صارماً بعض الشيء في النقود ولكن عندما جاءت جدتي " التـه حايه " وسكنتْ معنا عندها بدأتُ أحصل على ما أردته. ففي البداية لم تَـرِدْ جدتي ترك ألمانيا ولكن عندما بدأنا نسمع عن الذي كان يجري هناك تمكنتْ والدتي من إقناعها للإنتقال عندنا والسكن معنا.

وكان وفاة " التـه حايه " صدمة حقيقية لعائلتنا بالرغم من أنها كانت نيف على الثمانين من العمر. فبينما كانت تقلي البيض لفطور " ليو" في صباح أحد الأيام فإذا بها تنادي والدتي فجأة وتخبرها بأنه قد حان أوانها للرحيل. إلا أن أمي لم تصدق بأنها كانت جادة في كلامها؛ إذ لم تكن مريضة أو ما شابه ذلك. غير أن " التـه حايه " ذهبت الى فراشها ورحلت بسلام.

كانت مدينة روزفادوف على الأرجح نصف يهودية ونصف كاثوليكية وقد سكنـّا بين جيران مختلطين. وكان القصاب الذي إعتاد على تعليق لحم الخنزير في شباك دكانه على بعد بيتين أو ثلاثة بيوت عنا فقط. وكان الجيران الاقرب لنا بولنديين. إلا أننا كان لنا إحتكاك قليل معهم.

وكان يوجد إحساس قويّ للعشرة الأخوية بين اليهود على رغم كل الإختلافات بين الأغنياء والفقراء وعلى رغم النفاق والدسائس والى غيرها من هذه الأمور. ولم يكن لليهود كامل الحقوق في بولنده غير أننا لم نكن مقيدين في علاقـاتـنا مع البولنديين. وبحكم عمل والديّ، فأنا على يقين من أنهما كانا قد تعاملا غالباً مع بولنديين، غير أنني كطفل لم يكن لديّ أية علاقات. وبالحقيقة فأني تعلمت اللغة البولندية أولاً عندما باشرت في المدرسه. وقد بدأنا نتجنب الكنيسة الكاثوليكية عندما سمعنا بأنها تعبد الأصنام. وكنا دائماً متخوفين من المسيحيين ولاسيما في عيد الفصح. إذ كانوا يعتادون - وبعد خروجهم من القداديس في الكنيسة - يعتادون على الإعتداء والإنتهاك والذبح والفرهود ومحاولين إقتحام المحلات التجاريه. لذلك كنا نعتاد على إحكام غلق محلاتـنا أثـناء فترة عيد الفصح أو غيرها من الأعياد المسيحيه.

وفور وصولنا الى روزفادوف قال لي أبي: "والآن يا يوسف عليك المباشرة في الدوام في ''خَيدر Chaider''. فهي كانت المدرسة العبرية التقليدية للفتيان اليهود. فهناك تعلمنا العبرية إبتداءاً من الأبجدية. وكان الـ Melamet أو المعلم يعلمنا الأحرف عن طريق إنشادها بصوت غنائي ولم يتوانَ عن إستعمال العصا لضبط الصف. وبعد حين تعلمنا بعض الأجزاء من التوراة عن طريق ترديدها بعد المعلم. ويبدو بأننا تعلمنا الكثير هناك لأنني تمكنت من إلتقاط اللغة العبرية بسرعة حال وصولي الى أسرائيل لاحقاً.

ويالنا من حفنة أولاد مشاغبين كنا بالنسبة لمعلمنا. فكان الأولاد قد وجدوا بأنهم عندما يمسك بعضهم بيد بعض ويشكلون صفاً واحداً ويلمس الأول السلك الكهربائي في صندوق الكهرباء فسيحس الأخير بالصقعه. فتلك الصقعة كانت بداية فظة أستفتحتُ بها أيامي في مدرسة الـ "خَيدر" وأنا في عمر 4 سنوات. وحالما كان المعلم يترك الصف كان يعمّ الهرج والمرج بين الـ 15 – 20 فتى. وحتى عندما كان في الصف، كان بعض الفتيان يلعبون الورق تحت الطاولة رغم تعريض أنفسهم لخطر الضرب. وأتذكر أيضاً كيف كان أحد الفتيان الأكبر سناً يجمع النقود من الفتيان الآخرين – بائعاً شجرة لكل منهم في فلسطين. أما أنا فلم أرى شجرتي قط ولكنني بالتأكيد تعلمت بعض الحيل التجارية منه.

عندما كنت في السابعة من العمر ترتب عليّ الدوام في مدرسة بولندية، فلذلك علمني كل من والديّ وأخي وأختي كيفية الإجابة على بعض الأسئلة البسيطة مثل: ما أسمك؟ أين ولدتَّ؟ ما أسم أباك وأمك؟ وما الى ذلك. وتعلمت، في ذلك الوقت، المباديء الأولية للغة البولندية وكنت جيداً في درس الحساب إلا أنني لا أملك ذكريات سعيدة في تلك المدرسه. وبغض النظر عن صعوبات اللغة فإن الطلاب البولنديين بل وحتى المعلمين كانوا ينظرون نظرة إحتقار الى الأطفال اليهود والتي بدورها جعلت من حياتنا حياة بؤس.

وفي بيتنا لم يكن لنا على الأغلب وجبات طعام نتجمع فيها كلنا كعائله. إذ كانت أمي أو لينا تسرع وتأتي من الدكان لتحضّر شيئاً يأكله الأطفال. غير إن الحال في المساء كان يختلف، فكان أكثر تجمعاً نوعاً ما. وكنا نغلق دكاننا أيام الآحاد لنذهب في نزهه. أما رجال الأعمال فكانوا يذهبون الى النهر. وفي أيام السبت لم يعتاد اليهود أداء أي عمل ولم نكن نتمشى لمسافات طويلة، ولكننا كنا نغتنم الفرصة لنقوم بمثل هذه الأمور أيام الآحاد والعطل الرسميه. وأتذكر جيداً نزهات عائلية سعيدة عند نهر "سان" بالإضافة الى السفرات.

كنت طفلاً عصبياً الى حد ما مع كثير من المشاكل الصحية ولم آكل جيداً. وكنت أذهب الى طبيب الأسنان بإستمرار – ولعل ذلك يرجع الى ولوعي بالسكريات الذي لم يكن هناك سبيلاً لتقويمه. وعندما كنت في حوالي السن الخامسة كان لديّ نوع من الأنتفاخ في أحد أصابع قدمي. وأشار أحدهم لأمي عن وجود شخص قادر على معالجتي؛ ولا أعتقد بأنه كان طبيباً حقيقياً بالمعنى الصحيح. فقد وضع مسحوقاً ما على الإنتفاخ وصرخت حينها صرخة مروّعة بحيث لاتزال ترنّ في أذنيّ. أما الإنتفاخ فلم يعد ثانية إلا أن العلاج ترك ندبةً لاتزال في إصبعي منذ ذلك الوقت.

ومرة كان عليّ أن أقضي عدة أسابيع في كراكوف Krakow حيث كنت أتلقى العلاج لأذني المصابة من قبل أحد الأخصائيين هناك. ولدي ذكريات رهيبة عن كيف كان الطبيب يقشط القيح من أذني كل يوم. ولكن عندما عدنا الى البيت إشترى لي أهلي دراجة هوائية بثلاثة عجلات. وكان هذا يعتبر شيئاً لابأس به في روزفادوف.

جُودِت ويوسف والدب

وعندما كنت في سن التاسعة أخذتني أمي مع جودِث الى جبال كارباثي لقضاء عدة أسابيع من العطله هناك. ولاتزال لديّ صورة لنا مع رجل يرتدي لباس الدب ويحتضننا. وأعتقد بأنها كانت جهوداً لتحسين صحتي.

ولم يكن لنا بالحقيقة أية نية للبقاء في روزفادوف. إذ كان أهلي ما يزالان يعتزمان الرحيل الى فلسطين. وكان عمي حايم سيمحا مع ولديه قد سبقونا الى هناك. وأعتقد بأنهم أفلحوا في دخول البلد قبل أن يبدأ البريطانيون في محاولة توقيف تدفق اللاجئين الألمان. وكان أبي يخبرنا بإستمرار عن تلك الأشهر الثمانية الجميلة التي قضاها هناك. وقد جعل الأمر يبدو مشوقاً وساحراً، حتى حلمتُ أنا مرة بأنني كنت ذاهباً الى فلسطين، أرض الميعاد.

راحيل، جدتي، مايلِخ، أمي، شبرنسه

3. الحياة الدينية

كان إحتفال الشابَت (أي يوم السبت) قد شكّل مركز حياتنا الدينية. فإعتاد أبي أن يأخذني كل يوم جمعة بعد الظهر الى حمام طقسي يدعى "مِكفى Mikveh". ففي البداية كان يصب كل واحد دلو ماء على نفسه ويغتسل بالصابون. بعدئذ كنا ندخل الى ما يشبه بالساونه (حمام بخاري)، وهي كانت عبارة عن غرفة يملاؤها البخار وفي جانبها يتدرج حوالي 20 من الدرجات الطويلة. وأقصى ما تمكنت من تسلقه كانت الدرجة الرابعة لأني لم أطق تحمل سخونة الدرجات الأعلى. وبعد الساونه كنا نغمر أنفسنا بماء بارد، ونترك الحمام نظيفين حقاً – خارجياً وداخلياً. وبعدئذ كنا نرتدي أفضل ملابسنا ونعود الى البيت لإيقاد شموع الشابَت. وكانت ممارسة هذه الطقوس قد أثرت فينا بعمق، وغالباً كانت تغرورق عينيّ أمي بالدموع وهي توقد الشموع.

وبعد إيقاد الشموع كنا نذهب أنا ووالدي وليو الى الكنيس لتأدية صلوات المساء. وكانت الألحان العريقة المؤداة من قبل الشماس (خادم الكنيس) *Vorbeter* تخرق فؤادي. كنت أفهم

مجرد بعض من الكلمات العبرية إلا أن ألحان ومشاعر تلك الصلوات المُنغمة كانت تعبر بكل وضوح عن الإضطهادات والمعاناة التي قاساها شعبنا، وعن شوقه لله وللخلاص. ولا أزال أعيش تلك الأمسيات التي كنا نقيمها أيام الجُمع لحد الآن عندما أسرق نفسي لأختلي وأستمع لتسجيلات يوسيل روزنبلات Yossele Rosenblatt على أشرطتي المخشخشة.

وإن حدث بأن مسافراً أو غريباً حضر الى الكنيس فكانت تُعتبر دعوته الى البيت من أجل مأدبة الـشابَت فريضة mitzvah . وكانت أمي تـتمنى دائماً أن يصطحب أبي أحداً ما معه الى البيت، وغالباً كان يفعل ذلك. وكان أبي يقودنا في الترتيل ونحن ندخل الدار ومرنماً: "السلام عليكم من الملائكة الحراس" وأيضاً: "مَنْ تراه قادراً على إيجاد المرأة العفيفة؟ لأن ثمنها أغلى من الياقوت". وكنا نغسل أيدينا حسب مراسيم الطقس ونتجمع حول المائدة الإحتفالية. ومن ثم كان أبي يبارك النبيذ وبعده يبارك خبز الـ " كاله *Challah*" (وهو خبز مجدول كالضفيره). وكان العشاء يستمر لساعات: وكان أحياناً سمك " *Gefielte Fisch* " تـتبعه شوربة الشعرية "*Lokchen mit Yoch*" وبعدئذ تأتي الحلويات. وكان أبي يقرأ لنا بعد الطعام شيئاً من كتاب " السلام عليكم " أو من كتابات بعض المؤلفين اليهود الأوروبيين الشهيرين. ولإنهاء الأمسية كنا نرتل الكثير من الصلوات والمزامير، كلنا معاً.

أما في صباح يوم الشابَت فكنا ننام. وبعد وجبة فطور خفيفة - مثل كعكة القهوة – كانت العائلة كلها تذهب الى الكنيس. وكانت أمسيات أيام الجمع تـتميز بالرزانة، أما صبحيات أيام السبت كان فيها طابعاً أكبر من الأجواء الإجتماعية. وكم كنت أحب رؤية القاريء، في الكنيس، يفتح الدولاب الخاص لحفظ لفائف التوراة، ومشيراً الى أورشليم. وكان يرفع الغطاء المخملي حسب الأصول ويضعه على منبر الوعظ في وسط الكنيس. وكان يتم دعوة أبي أو غيره من الرجال لمساندة القاريء والتي كانت تعتبر دعوة شرف.

كانت هناك الكثير من الطقوس المرافقة لقراءة التوراة وكتب الأنبياء. وكانت هذه تؤدى برزانة، لكن الإجتماعات كانت تسودها أجواء الراحة والإرتخاء. فكان والدي يغفي أحياناً أثناء تلك القراءات الطويلة؛ فيأتي أحدهم ويقف وراءه ويجر أذنه ويتظاهر بأنه لم يفعل شيئاً. وكانت الإجتماعات تستغرق ساعات.

وكانت أمي في القسم النسائي من الكنيس أثناء الإجتماعات. وأعتقد بأنهن قد أخذن الأمور بأكثر جدية من الرجال. فرغم أنها لم تفهم عبري إلا أنه كان بمقدورك رؤيتها متأثرة داخلياً في

قلبها. أما الأولاد الصغار فكان لهم التنقل من والى قسمَي الرجال والنساء بحرية، وغالباً ما كنت ألاحظ أمي تبكي.

وبعد وجبة طعام دسمة تهدأ الأمور وننام في فترة ما بعد الظهر. وكان أبي يأخذني أحياناً معه الى بيت الحاخام. إذ كان هذا اللقاء محور الحياة الروحية للرجال، لأنهم كانوا يتناقشون في الكتب المقدسة وكتاب التلمود مع الحاخام. ولم يعتاد أن يأتي أخي ليو معنا؛ لأنه كان مشغولاً في نشاطاته ضمن حركة الشباب الصهيوني.

وعند ظهور النجوم الأولى في المساء كنا نذهب الى الكنيس مرة ثانية. إلا أن الطقس الختامي كان يجري في البيت. فكنا نتناول وجبة طعام أخرى ونرتل التسابيح لله الذي فرّق بين النور والظلمة وبين ماهو مقدس وماهو عولمي. فتتبعنا الـ شابَت – "الملكة" – الى الباب وودعناه لإسبوع آخر. وعندئذ يبدأ العمل؛ فعلينا التفكير في يوم الغد.

4. لاجئين

لقد كنت في سن العاشرة عندما إندلعت الحرب. وإندلعت كإندلاع الصاعقة في أيام الصيف المشمسة. وتبعثرتْ كلٌ من حضارة روزفادوف وحياتها الدينية والعرقية والى الأبد. وتسمّر الناس بجانب أجهزة الراديو. وحالاً أدركنا سرعة تقدم القطعات الألمانية الغازية في داخل بولندة، وإندحار الجيش البولندي. وبدأت حشود كثيرة من الجنود – بضمنهم الكثير من اليهود – بداءت بالإنسحاب والمرور في المدن. وأعَدّتْ أمي مع غيرها من النساء مطبخاً خارجياً لطهي الطعام للجنود.

أما مصلحة والدي فقد تم تدميرها قبل وصول الألمان بوقت طويل. إذ جاء الجيش البولندي وصادر السكر والرز. وأعطونا وصولات، ولكننا لم يكن لدينا أي أمل بإستلام أية دفوعات على الإطلاق حتى في وقتها.

وشاعت الفوضى والشغب لاحقاً. وصار غالبية البولنديين يجوبون الشوارع ويقتحمون المحلات وينهبونها. وسرقوا كل ما تبقى في محلنا التجاري.

وقد تخوفنا من أن الألمان سيقومون بإرسال الرجال القويّ البنية الى معسكرات العمل الإجباري، فعليه هرب كل من أبي وأخي ذا الواحد والعشرين عاماً بإتجاه الحدود الروسية. وعادوا الى البيت بعد حوالي اسبوعين لأن القطعات العسكرية الألمانية قد تقدمت وتمكنت من غلق الحدود.

حين دخل الألمان مدينة روزفادوف سقطت المدينة في غضون ساعات. وقضينا الليلة في السرداب تحت دويّ المدافع والإنفجارات. بعدئذ إختبئ أبي وأخي في العليّة. فكان يترتب علينا أن نقول للألمان بأنهما قد تركا المنزل متوجهين الى روسيا.

وكطفل بعمر 10 سنوات، لم أكن أفهم جميع الأحداث الجسيمة التي كانت تجري. فكنا نتراكض في أرجاء المدينة، ونتفرج على الجنود. وأتذكر مرة، عندما كنت في ساحة السوق، رأيت ضابطاً ألمانيّاً كان يجمع قطعاته العسكرية من أجل إلقاء كلمة لرفع المعنويات. فمشى عدة مرات أمام الجنود الواقفين بالإستعداد. ولما كانت اللهجة اليـيـدية Yiddish مقاربة للألمانية تمكنت من فهم بعض ما قاله، إذ قال: "والآن أيها الرجال! لقد إنتصرنا هنا وإنتصرنا هناك. وزرعنا بذوراً في كل هذه البلدان. وستستولي ألمانيا على العالم كله."

لم يُسمح لنا بالإجتماع في الكنيس، أو بإجراء أي تجمع. ولكن لأنه كان يوم الغفران *Yom Kippur* لذلك تجمعنا في أحد البيوت حيث أقمنا الصلاة. ولايسعني أبداً نسيان تلك الدعوات الملتهبة والصارخة لله من أجل تدخله ليسترنا. فلم يعلم أي أحد منا ما كان بإنتظارنا إلا ان كل واحد فينا كان يتوقع حدوث الأسوأ.

بعد مضي شهر على وصول الألمان، تم إصدار أمراً لكل اليهود ليتجمعوا في ساحة السوق في غضون ساعة واحدة. لم يخبرنا أحد عما كان سيجري، إلا أننا أحزمنا ما نستطيع حمله على ظهورنا من أمتعة. فأمرنا الضباط الألمان – من قوات الـ SS على ما أفترضه الآن – على السير بإتجاه نهر " سان ". فكانوا يصرخون ويسوقون تلك الصفوف الطويلة من الرجال والنساء والأطفال وهم يحملون كل ما أمكن حمله من أمتعة. وساق أحدهم دراجته البخارية بإتجاه الطوابير مضايقاً الجميع ليسيروا أسرع. كما وضرب والدي بحربته. ولا أظن بأن والدي قد تأذى كثيراً، إلا أن المشهد أثـّر فـيّ داخـليـاً.

وعندما وصلنا أخيراً الى نهر سان كان هناك المزيد من الجنود. ولا أتذكر كيف عبرنا النهر، ولكنني أتذكر كيف صار الجنود يفتشوننا ويأخذون كل ما له قيمة منـّا. وكما إعتاد أبي أن يـتـنـبأ بما كان قد يحدث فقد خيّط نقودنا بالملابس الداخلية لأختي الصغيرة. وقد صار الكثير من الناس فارغي اليدين، ولكننا تمكنـّا، والشكر لله، من عبور النهر بشيء من النقود بالإضافة الى معاطف فراء وغيرها من المواد الثمينة.

أما الجانب الشرقي لنهر سان فكان وكأنه لا ينتمي الى أية دولة. فقد تبيّن بأن كل من هتلر وستالين كانا لايزالان يتجادلان حول من سيأخذه. وقد تمكنّا من إيجاد مأوى مؤقت في إحدى القرى هناك. ولما كان مستقبل المنطقة مجهولاً فلم يرد أحد المكوث هناك لوقت طويل، إذ لم نكن ندري: "هل ستكون المنطقة تحت سيطرة الألمان أم الروس؟"

فتمكن والدي مع بعض العوائل الأخرى من شراء حصان وعربة لغرض التوجه الى المناطق التي تحت الإحتلال الروسي.

ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا بتقدم القطعات الألمانية، فحملنا جميع أمتعتنا وبعض الأطفال الصغار في العربة وإنطلقنا شرقاً. ومررنا بغابة فخرج علينا فجأة مجموعة من اللصوص حاملين المسدسات وأمرونا بالتوقف. وبطبيعة الحال، إرتعب جميعنا، لكن رجل شجاع قام من بيننا وقال لهم : " إقتلوني إذا شئتم، غير أننا سنقاتل من أجل هذه العربة ". ووقف الى جانبه أحد أبنائه وإلتقط حجراً. أما اللصوص فقد أخذوا إحدى الدراجات الهوائية من العربة وتواروا وتركونا نمضي في طريقنا.

وعندما حلّ الليل أصبحتْ مواصلة السفر خطِرة، فرجعنا بضعة كيلومترات الى فندق يهودي. وقد نزل فيه الكثير من اليهود. وفي ساعة متأخرة من الليل جاء القرويون وأحاطوا بالفندق وأطلقوا علينا صيحات من الشتائم وخلعوا دواليب عرباتنا. وقد كنا محاصرين تماماً وأصبحتُ على قناعة تامة من أن هؤلاء البولنديين سيقضون علينا أجمعين. ولكن أحد الرجال البولنديين قفز فجأة الى فوق إحدى العربات وأنتهر مواطنيه صارخاً: "ألا تخجلوا من أنفسكم لتعديكم على أناس ضعفاء كهؤلاء؟ فغداً سيأتي دوركم. فليرجع الجميع الى بيته! وأنا واقف هنا مع إبني، وإذا مسّ أحدكم أيّاً من هؤلاء الناس فسيكون على أجسادنا الميتة". وإستطاع هذا الموقف من كبح التجمهر وصار الناس يتبددون تدريجياً. أما أنا فلم أسمع أي شيء عن هذا الرجل لا قبل ولا بعد تلك الليلة، ولكنني كنت دائماً أكنّ له الكثير من الإعجاب والإحترام على فضيلته وعلى شجاعته في إنتهار ذلك الحشد الغاضب.

وبعد حوالي اسبوع امكننا الوصول الى المناطق المحتلة من قِبل روسيا. لم تكن المسافة بعيدة كثيراً لكن السير كان بطيئاً. إذ كنا نمشي خلال الغابات في النهار ونبيت ونرتاح في القرى ليلاً. وبالحقيقة، فان القطعات الألمانيّة المتقدمة إحتلتنا في ذلك الأسبوع إلا أنهم لم يمنعوننا من متابعة سفرنا.

وإبتهج جميعنا عند رؤية الجنود الروس أخيراً، إذ عرفنا بأننا نجونا من الألمان. وكان ذلك المكان – الذي يدعى " لانسِت Lanzit " على ما أظن – طافحاً باللاجئين، فحشرنا أنفسنا في قطار الى مدينة " لفوف Lvov " آملين في إيجاد مسكناً هناك. وكانت " لفوف " مزدحمة كذلك لكننا كان لنا واحد من أقاربنا البعيدين هناك، وكان تاجراً وسمح لنا بالبقاء في إحدى غرف مخزنه.

فكنّا في غاية الإمتنان من أننا لدينا ولو سقفاً فوق رؤوسنا، غير أن بيتنا الشتوي في مدينة لفوف لم يكن مفرحاً. فكانت غرفة المخزن بعرض 5 أمتار وبطول 15 متر تقريباً. واقتسمناها مع عمي مايلِخ وزوجته راحيل، إلا أن هاتين العائلتين كانتا تتشاجران معاً في أغلب الأحيان. وكانت تلك الغرفة معتمة وباردة. ولا أتذكر وجود أي نار لكن كان يوجد لدينا وعلى الأرجح موقد خشب – وكان يستعمل أيضاً للطبخ.

لا أتذكر بأننا ذهبنا الى الكنيس في مدينة لفوف؛ وفي الواقع، فأنا لا أتذكر وجود أية حياة دينية هناك على الإطلاق. فأظن بأننا جميعنا كنا منشغلين ومهتمين بالنجاة طوال تلك الأشهر الستة.

وفرحتنا الفائقة عند أول لقاء لنا مع الروسيين تبددت بسرعة عندما رأينا كيف كان شكل الحياة في روسيا. إذ قد بدأنا أنا وأختي بالدوام في المدرسة في ذلك الوقت. وكان المعلم يعلمنا باللغة الـ يديدية إلا أنه كان شيوعياً وحاول تلقيننا عبادة شخصية ستالين. وأتذكر واحدة من الأغاني التي كانت تقول: "ستوجد دائماً جداول تجري في العالم، ستوجد دائماً نجوم في العلى، لكن إسم ستالين سيسطع فوقها كلها، فإسمه أعمق من البحار وأعلى من الجبال. ولا يمكن إيجاد مثيل له على الأرض كلها." لكن حتى نحن الصغار شعرنا بأن ذلك كان هراءاً؛ وحتى صرنا نجادل المعلم سائليه: "من خلق العالم إذن؟" ولكن، من ناحية أخرى، كان يتعين علينا أخذ الحذر لأن الكثير من الناس عانوا من جراء النفي الى سيبيريا – إن لم يكن أسوأ – وذلك نتيجة لمعارضتهم لِـ ستالين.

ولأجل الحصول على شيء من الدخل بداءنا التعامل في السوق السوداء. فعن طريق مراقبة المحلات التجارية وأيضاً عن طريق الإنتظار في الطوابير الطويلة، كنا نحصل أحياناً على سكائر وسكريات وغيرها من السلع النادرة. وحتى كان أهلي يبعثونني أحياناً لأبيع بعض الأشياء في السوق، خاصة السكريات. فقد تجولت الشوارع خلال تلك الأشهر. فإن لم أكن أبع الأشياء بالصينية، تراني غالباً أقفز الى عربات الـ ترام وأقوم بغيرها من الأفعال الصبيانية

الحمقاء التي تبدو كمغامرات في عيني صبي ذا 10 سنوات من العمر وهي معجزة حقاً من أنني لم ألقى حتفي في حينها.

في حزيران من عام 1940، أصدر الروس مرسوماً يقضي بتسجيل جميع المقيمين واللاجئين في أوكرانيا لدى الشرطة. وقد تم منحنا خيارين. فإذا رغبنا بالبقاء فسيمنحوننا الجنسية السوفيتية وسيساعدوننا في إعادة توطيننا في داخل أوكرانيا. أما إذا أردنا الإحتفاظ بجنسيتنا البولندية فسيساعدوننا في العودة الى المناطق المحتلة من قبل الألمان في بولندة. فبعد كل ما سمعناه وعشناه في الإتحاد السوفيتي الدكتاتوري، لم تكن فكرة حوزة الجنسية السوفيتية مثيرة للإعجاب. وطبعاً لم يكن لدينا فكرة عن ما كان يجري في الأحياء اليهودية البولندية؛ وفي الواقع، كانت الشائعات تدور بأن الحياة في ظل السيطرة الألمانية ليست سيئة جداً مثلما كنا نخشاها.

وراح الكثير من عوائل اللاجئين يبذلون جهوداً للتفكير ملياً متسائلين: "ماذا سنفعل؟" في نهاية الأمر سجل أغلب اللاجئون اليهود للعودة الى بولندة المحتلة من قبل ألمانيا. ونحن أيضاً كنا نتطلع بلهفة للعودة الى دارنا في روزفادوف.

5- النفي الى سَيبيريا

لم يمض وقتاً طويلاً بعد تسجيلنا للعودة الى بولندة، حتى حدث منع تجول في مدينة "لفوف". فتحتم علينا الإنتظار والبقاء في بيتنا. أخيراً جاءنا بعض الجنود ومعهم ضابط من قوات الأمن. فأمرونا بالذهاب معهم في غضون عشرة دقائق. وكان يوماً من أيام الصيف الحارة وحمّلنا كل شيء مما تبقى لنا في عربة حِمل كانت تنتظر خارج الدار. ثم جلسنا مع حوالي أربعين شخصاً آخر على الحقائب وأخذونا الى محطة القطار.

وكان الجنود منتشرين هناك في كل مكان. فتم فرزنا الى عدد من قطارات الشحن التي كانت بإنتظارنا – حوالي 50 عربة، و50 – 60 شخصاً في كل عربة. أما الشاحنات الصندوقية للقطار فكان لها أرضية مرتفعة ويوجد فيها ثقب بدائي يُستخدم كمرحاض؛ وربما كان لها نوع من الستارة. وقطارنا لم يكن الوحيد آنذاك؛ فقد رأيت قطارات أخرى، وقد سمعت بأنه قد تم نقل ثلاثة مئة ألف شخص في ذلك اليوم.

فبعدما تم تحميل الجميع، قـُفِلتْ عربات الشحن وتحرك القطار. أما جو العربة فكان حاراً وهواءه فاسداً لأنه كانت هناك مجرد فتحة صغيرة للنظر منها. وعطش جميعنا بشكل رهيب ولم يكن هناك شيئاً نشربه. وكان مقفول علينا في تلك العربات مدة يومين أو ثلاثة، ولم يمض وقتاً طويلاً حتى أدركنا بأننا لسنا متجهين الى بولندة بل متوغلين الى داخل روسيا.

بعد مضي أيام، بداءوا بفتح أبواب العربات بين الحين والآخر ليدعونا إيجاد شيئاً نأكله ونشربه. ولا أعتقد بأن مايلخ وراحيل كانا معنا في العربة نفسها بل يمكن في القطار نفسه لأننا

جميعنا وصلنا الى المكان نفسه. وأخيراً وبعد قضاء أسبوعين في الشاحنة الصندوقية وصلنا الى أحدى مدن سَيبيريا وتدعى " سوسفة Sosva " حيث أمرونا هناك بترك القطار وأرسلونا الى بضعة كيلومترات بمحاذاة نهر سوسفة. وتلتها بضعة كيلومترات الى عمق الأراضي، فوجدنا حوالي مئة دار مبنية من جذوع الأشجار ومرتبة في مجموعتين وكل مجموعة ذات طابورين من الدور؛ وكان هذا يدعى معسكر 45 والذي كان علينا الإستقرار فيه.

وحالما وصلنا خطب فينا آمر المعسكر من على منصة. وتكلم بالروسية مصحوب بمترجم، فقال: "ربما تظنون بأنكم لن تبقوا هنا طويلاً. ولكنني أنا هنا منذ 25 سنة خلت وأؤكد لكم بأنني لم أرَ أحداً قد غادر هذا المكان. فالأفضل لكم أن تتأقلموا معه. فإن فعلتم هذا ستنجون؛ وإلا سيقضي نحبكم." كان هذا إستقبالنا. فها نحن قد أصبحنا الآن في " منفى إجباري "، وفي حالٍ أفضل قليلاً من المعسكرات السَيبيرية للعمل الإجباري – تلك المعسكرات الشائنة.

في ذلك الوقت، كنا مانزال نتلضّى في خيبة الأمل جراء خداعهم لنا وإرسالنا الى سَيبيريا بدلاً من بولندة، أي على عكس ما وعدونا به. إلا أن المفارقة هي أن شوقنا للعودة الى بولندة قد أنقذ حياتنا على الأرجح، لأن اليهود الذين اختاروا البقاء في الإتحاد السوفيتي قد تم توزيعهم في غرب أوكرانيا، وأغلبهم قُتلوا عندما غزاهم الألمان، في حين تم نقل أولئك الذين حاولوا العودة الى بولندة الى غرب سَيبيريا والتي كانت آمنة نسبياً. فكانت واحدة من تلك المرات التي إستخدم فيها الله حماقتنا لحمايتنا.

كانت الدور الخشبية للمعسكر قد بُنيت من قبل منفيين سابقين. وكل بيت خشبي كان فيه غرفتين، وكل عائلة كان لها غرفة واحدة. واستعد أبي وعلى الفور ليحصل على أفضل ما موجود. وقد حاول في البداية أن يشغل داراً من أفضل الدور الواقعة في وسط المعسكر، ولكننا سرعان ما طُردنا وأخبرونا بأنها محجوزة لغيرنا من هم أكثر حظاً. فإنتهى الأمر بنا في آخر دار في الصف.

كانت مساحة غرفتنا حوالي 5 أمتار مربعة وذات موقد حطب روسي قديم الطراز في إحدى أركانها. وقد بنى والدي دكة لنا لننام عليها وقد قايض مع غيره من اللاجئين من أجل بعض الطابوق لتحسين الموقد وتحويره ليستعمل للتدفئة وكذلك للطبخ. ومع الوقت أضاف طاولة ومصطبة بسيطة، فأصبح التعديل مريحاً نوعاً ما.

وكان همّنا الثاني هو تدبير وخزن الطعام وكذلك الوقود لفصل الشتاء. فكانت أمي تأخذنا نحن الطفلين الصغيرين معها الى الغابة لقطف وتجميع الـ كرَنبري (نوع من التوت البري الأحمر اللون)، والذي كان وفيراً هناك، وقد جمعنا مئات الألتار من هذا التوت. وصنع والدي صندوقاً خاصاً خارج الدار لتجفيف وخزن الـ كرَنبري لفصل الشتاء. وكما بذلنا جهوداً شاقة أيضاً في تجميع وتحضير خزين من الحطب ليدفئنا طوال شتاء سَيبيريا الطويل. وبفضل دهاء والدي وإستقرائِه للمستقبل، فقد كانت حالنا أيسر من عوائل أخرى كثيرة. إذ عانى الكثيرون في المعسكر من الجوع أو الإنجماد عندما حلّ شتاء سَيبيريا بكل قساوته.

كان عمل الرجال الرئيسي هو تقطيع خشب الأشجار الى حطب إذ كانت الغابات الكثيفة تحيط بالمستوطنة. فكانوا يقطِّعونه ويفلقونه ثم يصفّونه في أكداس. وكان الموظفون يأتون ليقيسوا الأكداس ويحسبوا الأجور. وكان الفساد (الرشاوي) متفشياً. فكان بعض الموظفين يقولون على سبيل المثال: " أعطني قنينة فودكا وأنقل هذا الكدس من هنا الى هناك وسأسجل لك ضعف العمل."

وإشتغل بعض الرجال قرب دارنا في نشر الخشب. فكان يقف أحدهم على منصة وآخرهم في أسفلها وينشران الخشب صعوداً ونزولاً على الدوام. وعمل أبي أيضاً في فلق الخشب مدة معينة، ولكنه وجد بعد ذلك شيئاً أفضل. فبالقرب من حجرتنا في نهاية الطابور كان مكان اصطبل الخيل التابع للضباط بالإضافة الى عربات الخيل وزلاجات الجليد. فبدأ والدي يتقاضى أجوراً مقابل عنايته بالحيوانات والعربات. فكان الضباط يأتون في أي وقت كان، سواءاً في النهار أم في الليل، ويطلبون من والدي ليربط حصاناً بعربة أو إعادة حصان يحتاج الى علف وماء. فكان هذا العمل أفضل بكثير من فلق الخشب. فقد توفقنا أخيراً على أفضل وجه عندما صار آخر دار في الطابور من نصيبنا.

وفي بداية فصل الخريف، سمعنا خبر وجوب تسجيل كل الرجال وكل العازبات ليشتغلوا في معسكر آخر يقع على بعد بضعة كيلومترات عنّا، وقرب النهر. لم يتحتم على أبي الذهاب بسبب عمله في الإصطبل، لكن ليو ولينا ذهبا. لكننا لم نكن نثق بالروس وظننّا بأنهما سوف لن نراهما ثانية. إلا أنهما بالحقيقة رجعا بالفعل بعد مساعدتهما في حصاد التبن.

وكان يوجد دكاناً في ذلك المكان، وكانت لنا الحرية لشراء ما كان متوفراً. وكانت الأجور بالحقيقة كافية لمعيشتنا – طالما كان هناك شيئاً نشتريه. ومع إستفحال الحرب أخذت حصة الأرزاق بالتناقص شيئاً فشيئاً الى أن صارت معدومة. ومع ذلك فلم ينهزم أبي بسرعة. فبالرغم

من أنهم لم يسمحوا لنا بالتنقل أكثر من بضعة كيلومترات عن المعسكر، ولكن كان وعلى مقربة منّا مُجمّعاً سكنياً. وكان والدي يعرف كيف يعقد صفقات تجارية مع أولئك القرويين النائيين. فأتذكر مرة ذهبت مع والدي الى إحدى زوجات المزارعين في ذلك المُجمّع. وأخذ معه مِئزراً (أي صدرية مطبخ) قديم كنا قد جلبناه معنا من روزفادوف. كنت أعتقد بأنه مجرد خرقة لا قيمة لها، إلا أن أبي رتّبه وجعله يبدو جميلاً. واستخدم أساليبه المعهودة في البيع وأخيراً سألته الإمرأة القروية: "بكم تريده؟ " فأجابها والدي وبكل هدوء وثقة بالنفس: "50 كيلوغراماً من البطاطا و 3 ألتار من الحليب وشيئاً من الخبز." أما أنا فإنحرجت كثيراً بحيث إضطريت الى مغادرة الغرفة؛ فلم أصدق بأنه سيطلب كل هذا مقابل ذلك المئزر القديم. إلا أنه خرج بعد بضعة دقائق مع كل ذلك الطعام الثمين. وكان علينا تحمل مشقة نقله والعودة الى المعسكر.

وأما أمي فكانت تبقى في البيت لترعانا نحن الصغار بالإضافة الى الأعمال المنزلية. وكان يترتب علينا الذهاب عدة مئات من الأمتار لجلب الماء من أحد الينابيع. وكان عليّ عمل ذلك عدة مرات في اليوم، وحتى أختي الصغيرة كانت تعمل الشيء ذاته. وكان عمري حينها أحد عشر عاماً وهي تسعة. وكنا ننقل الكثير من الماء ولاسيما عندما كانت أمي تغسل الملابس. فكنا نغلي الملابس، وكنت أساعدها في حكّ الملابس على خشبة الغسيل وفي شطفها.

وعندما أتذكر الآن هذه الأمور، أتمنى لو كنت قد ساعدتها أكثر. فكان هناك الكثير من العمل وكانت أمي تعاني من آلام مبرحة جراء فتق لم يلتئم. وجاء وقت داومت فيه بالمدرسة وتعلمت قراءة وكتابة اللغة الروسية. إلا أن ما يثير الإنتباه، هو أن أطفال القرويين كانوا يسيرون مسافة 5 كيلومترات خلال الغابة المتجمدة ليأتوا الى المدرسة التي في معسكرنا، لأن مجمعهم كان فقيراً ولم يكن في وسعهم إنشاء مدرسة لهم.

كانت الأشهر الخمسة الأولى حارة جداً. وكانت تهجم علينا سحب من البعوض المصاص للدماء وتعذبنا عندما كنا نقطف الـ كرَنبري، وكان علينا الأنتباه لئلا نغرق في مستنقعات من الوحل. أما في فصل الشتاء، فكان وجه الأرض يتغير. وفي شهري تشرين الأول والثاني يتجمد كل شيء بصلادة. وكان العمل والمدارس يستمران إلا في حالة هبوط درجة الحرارة الى أقل من 50- درجة مئوية. كان أخي وأختي يأتيان يومياً من الغابة وهما مغطيان كلياً بقماش الأكياس الثخينة المتثلجة. وكان يترتب عليهما الجلوس طويلاً قرب الموقد قبل أن يبدءا بنزع طبقات ملابسهما. ولاتزال لينا تعاني لحد الآن من أقدامها نتيجة الأذى الذي سببته قضمة الصقيع. وقد أصيب الوالد في العائلة المجاورة لنا بمرض ذات الرئة والذي توفي على أثره.

وعندما حلّ الربيع أخيراً زرعنا البطاطا. وقمتُ أنا وأمي بأغلب عمل الفلاحة للمزرعة: مثل عمل الأسمدة الطبيعية ونقل فضلات الحيوانات لمسافة 200 – 300 متر من مكان الأصطبل الذي عمل والدي فيه. وكان يترتب علينا نقل الماء أيضاً للمزرعة. ونمت البطاطا جيداً، وفي نهاية فصل الصيف تمكنّا من حصد عشرة أضعاف مازرعناه: طن ونصف من البطاطا – كافية لتغطي سنة كاملة.

في أحد أيام ربيع 1941 عاد الوالد الى البيت من عمله الروتيني الصباحي وهو يحس بوعكة صحية. وبدا عليه الإرتباك. فإرتمى على السرير وإذا به غائب عن الوعي تماماً، ويسيل اللعاب من فمه. وأحتدمت أمي غيظاً ولم تعلم ما كان بوسعها أن تـفعله. فنادت على الرجال الذين كانوا ينشرون الخشب قرب بيتنا فأسرعوا في طلب النجدة. وكانت واحدة من اللاجئين طبيبة والتي كانت تساعد حتى الطبيب الروسي الرسمي للمعسكر على أنه لم يكن بالحقيقة طبيب بل كان له نوع بسيط من التدريب الطبي. على كل حال، جاءت الطبيبة إلينا، ونخست قدم أبي بأبرة، ولكنه لم يستجب، فأكدت لنا بأن والدي جاءته جلطة ولم نعلم آنذاك إن كان سيشفى أم لا. لكن الأمر كان وقعه فظيعاً على أمي.

أما ليو ولينا فقد عملا في معسكر آخر بعيداً عنـّا، فذهب رجل يخبرهما عما جرى. فوجد أختي وأخبرها بأن الوالد ليس في صحة جيدة، ولكنها لم تدرك مدى خطورة ما كان يقوله، في البداية. ولكنه قال لها أخيراً: "قد يموت أباكِ." فأسرعت في الحال لأيجاد ليو وتركا مكان عملهما خلسة وركضا الى البيت مسافة 10 – 12 كيلومتر. ومما لاشك فيه، إنهما قد عرّضا نفسيهما الى خطر إرسالهما الى معسكرات العمل الإجبارية حين غادرا من غير إستـئذان.

وصلا الى البيت في حوالي منتصف الليل. ولم يُبدِ أبي أية علامة لإستعادة وعيه طوال تلك الفترة. ولكنه بدأ يتحرك قليلاً قبل وصولهما ببرهة. فياله من إرتياح عارم عندما تمكنوا من تـنـفس الصعداء فور علمهم من أن الوالد مازال على قيد الحياة. ووطدت هذه التجربة مشاعر الوحدة الحقيقية في عائلتنا. بالإضافة الى أنها قرّبـتـنا من الرجلين الذين كانا ينشران الخشب قرب دارنا. وقد كانا كلاهما مثقفين جداً: وأظن بأن أحدهما كان مهندساً. بالإضافة الى تعريض أنفسهما للخطر عندما غادرا عملهما من غير إستئذان بالإنصراف. إلا أنه في النهاية لم يتعاقب أي منهما. وقد عاد كل من أخي وأختي الى عملهما في اليوم التالي. وقد علم مسؤول عملهما بما حدث وغضّ طرفه عنهما في حين كان الآخرون يغطون ويملون مكان ليو ولينا.

في صباح اليوم التالي أصبح والدي قادراً على الإستجابة لبعض الشيء. وبعدئذ نام طوال النهار، واستمر اللعاب يسيل من فمه. أخيراً إستيقظ ونظر حواليه وإستطاع التعرف علينا. فبهذا، استغرقت فترة عدم وعيه مدة يوم كامل. وقد سببت له هذه الجلطة، وعلى الأرجح، شلل نصفي في وجهه، ولكنه سرعان ماتمكن من الوقوف على رجليه. وأصبحت صحته واهنة بالتأكيد، ولكنه لم يتعوق بشكل كبير. ولم يتواجد دواء لحالة إرتفاع ضغط الدم آنذاك، إلا أن والدتي استمرت في مراقبته كالصقر للتأكد لئلا يُثار كثيراً.

عند نهاية صيفاً ثانياً في سَيبيريا سمعنا بأن الألمان إجتاحوا روسيا. فقلقنا كثيراً في باديء الأمر لما قد تكنّه هذه الأخبار لنا من مصائب، ولكنها جلبت بالحقيقة لنا إرتياحاً غير متوقعاً. فقد أجبر ستالين للإلتفات الى الحلفاء طلباً للمساعدة، واغتنمت الحكومة البولندية في المنفى هذه الفرصة للمطالبة بالإفراج عن اللاجئين البولنديين المحجوزين في سَيبيريا، وسمعنا فجأة بأننا أحرار للذهاب أينما نشاء! ولكننا، طبعاً، كنا مانزال في غابات سَيبيريا النائية وبيوتنا في بولندة كانت ماتزال تحت الإحتلال الألماني.

تمكن أبي من إستئجار غرفة لنا في مدينة صغيرة تدعى " سوسفه Sosva " والتي تبعد حوالي كيلومتراً واحداً عن المعسكر. وإحتوت هذه المدينة على محطة قطار ومكتب بريد ومنشرة خشب حيث اشتغل ليو ولينا فيها. وكان لايزال عندنا تجهيزاً من البطاطا يكفينا مدة سنة، فقمنا بعدة رحلات ذهاباً وأياباً حاملين كل شيء الى سوسفه.

فأردنا الخروج من سَيبيريا والإبتعاد عن الجيش الألماني الزاحف. فنظرنا في الخريطة فقررنا النزوح جنوباً الى دولة أوزبيكستان Uzbekistan ، لأننا قلنا بأنه في حالة إحتلال الألمان لكامل روسيا فسيمكننا الفرار جنوباً عبر أفغانستان وأخيراً الى فلسطين. فقررنا أن نأكل البطاطا والإحتفاظ بالخبز من حصة الأرزاق لأن السفر سيكون أسهل مع الخبز. فشرعنا في تجفيف الخبز تحت أشعة الشمس الحارة وأكلنا البطاطا مع صلصة الـ كرَنبري. ولم يكن لدينا سكر، وكان الـ كرَنبري مرّاً للغاية. ولم يكن لدينا أية لحوم أيضاً، لاشيء غير البطاطا – في الصباح والظهر والمساء. كان هذا هو غذائنا لأسابيع عديدة. ولكن، وللغرابة، فما أزال أحب البطاطا لحد الآن! وتمكنّا أخيراً وبمشاركة بعض العوائل الأخرى من تأجير عربة مقطورة. وفي تشرين الثاني من عام 1941 كان كل شيء مهيأ لرحلتنا بإتجاه الجنوب.

6. سمرقند – الجوع والمرض

قطارات كثيرة مختلفة جرّت عربتنا خلال طريق متعرج من سَيبيريا الى أوزبكستان. وبتوجهنا الى الجنوب رأينا قطارات محمّلة بالجنود ذاهبة عكس الإتجاه – الى الجبهة. وطبعاً كان النقل العسكري له الأولوية، لذلك كانت عربتنا غالباً ما تقف منتظرة عدة أيام في بعض محطات القطار. وكنا نستفاد من تلك التوقفات في إيجاد الطعام والمؤن لتلك الرحلة، ولكننا لم نعلم قط متى كان قطارنا سيتحرك.

ومرة عاد كل من ليو ولينا من قضاء بعض الأمور حين بدأ القطار فجأة بالتحرك. فقفز ليو الى العربة المجاورة لعربتنا في حين إستنزفت لينا كل طاقتها الى أن تمكنت من الأمساك بالعربة الأخيرة. وظنّ حارس المحطة الروسي بأنها كانت تريد إعتلاء القطار من دون أن تدفع ثمن الركوب فأخذ يحاول دفعها عن القطار وتجادلت معه لغاية المحطة التالية، حيث قفزت من القطار فعثرت علينا. وقد سمعنا قصصاً بحوادث مماثلة حيث تشتّت عوائل بكاملها.

وحاولنا إيجاد ملجأ لنا في " طشقند Tashkent " عاصمة أوزبكستان، لكن المدينة كانت مكتظة تماماً بالناس. فإتجهنا بعد عدة أيام الى الجنوب أكثر وأكثر والى مدينة سمرقند، لكن الحالة هناك لم تكن أفضل. إذ كانت مئات الآلاف من اللاجئين يهربون من إنقضاض الألمان عليهم. وكثير منهم كانوا من اليهود، لكن كثيرين غيرهم لم يكونوا يهوداً. وتمكن أبي أخيراً من تأجير غرفة من يهودي بخارى Buchara jew (وهم يهود منطقة بخارى في أوزبكستان)، وكانت الغرفة صغيرة: ربما كانت 3x2 متر. وبالكاد كنا نقدر أن نتمدد نحن الستة على أرضية الغرفة الطينية المدكوكة؛ فكنا أشبه بسمك العلب.

وكنا نتقاسم ساحة الدار والمرافق الصحية التي كانت في خارج الدار مع ذاك اليهودي البخارى الذي كان يسكن في ذاك المجمع السكني. وكانت لغة وتقاليد أولئك الناس اليهود غريبة علينا. حتى أن كنيسهم كان مختلفاً عما إعتدنا عليه في أوروبا الشرقية. وقد سمعت بعد حين أن بعضهم تكلم بالسوء عن اليهود البخارى. فربما قد إستغل أحدهم وضع اللاجئين، إلا أنهم، وبصورة عامة، كانوا قد أبدوا ضيافة عظيمة لعائلتنا وحتى أكثر من توقعاتنا في ظل تلك الظروف. إذ كان الناس أنفسهم فقراء وربما عانوا أكثر من جراء الإكتضاض الذي سببناه لهم.

كان الجوع المتواصل - الذي لا يرحم - ينخر فينا طوال كل تلك الأشهر في سمرقند؛ فلم أمر بجوع يائس مثل ذاك من قبل. فلأجل الحصول على أي شيء كان يتحتم علينا الإنتظار في طوابير – واحياناً نبيت الليل هناك. فأضحت الجموع تنتظر وتتدافع من أجل الحصول على حصة تموينية ضئيلة من الخبز. فقد جنّ الناس بسبب الجوع. فكان الناس اليائسين يهجمون على أولئك الذين حصلوا على حصتهم من الخبز ليسلبونه منهم ويلتهمونه في الحال كذئاب جائعة. وقد ضربتني مرة شلة من الأولاد على رأسي وسرقوا مني الخبز الذي كنت أحمله الى البيت.

وكانت تنتشر بإستمرار إشاعات عن إحتمالية إستلام أحد الدكاكين لسلعة معينة. فترى الناس قد إحتشدت لتنتظر لمدة ساعات أمام الدكان، وفي منتصف الليل على الأغلب. وقد مُنِعت التجمعات الليلية وصارت الشرطة تعاملهم بوحشية بالعصي لتفريقهم. ولكن فور ذهاب الشرطة فإذا بهم يحتشدون ثانية منتظرين أمام الدكان. وكانت هذه العملية تتكرر مرتين أو ثلاث مرات أثناء الليل. وفور فتح الدكان لأبوابه فإذا بجموع الناس تندفع وتنعصر في داخله. وأنا كنت صبياً يافعاً آنذاك وقد تعلمت بعض المهارات لأتسلّل وأتحرك كالديدان الى مقدمة الطوابير. وكنت أحياناً أحاول شراء شيئاً من الطعام الإضافي؛ كمشروب البراندي أو غيره من السلع النادرة لبيعها في السوق السوداء.

فبأسلوب أو بآخر فقد تمكنّا من الحصول على ما يكفينا من الطعام لنبقى على قيد الحياة. ولم يكن لدى الكثيرين غير مواجهة الموت جوعاً أو الإصابة بمرض التيفوئيد والذي تفشى بالأحياء المكتضة بالسكان. وإعتادت الشاحنات السير يومياً لإلتقاط جثث الموتى المترامية في الشوارع. وأول من أصيب بالتيفوئيد في عائلتنا كان ليو. فقد كانت صحته دائماً جيدة، إلا أنه تمرض فجأة وأصابته الحمى الشديدة والهذيان. وإعتنت أمي به؛ وأتذكرها تبكي على حالته. وتمكنّا من إستدعاء الطبيب بثمن باهض. فقد حاولنا جاهدين إبقاءه بعيداً عن المستشفيات المكتضة

بالمرضى لأن السلطات كانت تعزل المصابين بالتيفوئيد. فكان الناس بالحقيقة يُتركون هناك لـيـلـقـوا حـتـفهم.

بعد ذلك أصيبت أمي بالمرض – على الأرجح من ليو. فصممنا إبقاء أمنا بعيداً عن المستشفى. وصرنا على إستعداد لبيع كل شيء لندفع تكاليف مراجعة الطبيب والأدوية. وحتى كنا نقف وراء باب الدار كمراقبين في حال إقتراب أي من مفتشي الصحة؛ فعندها كنا سنقفل الباب ونتظاهر بعدم وجود أحد في البيت. لكن حالة والدتي إزدادت سوءاً. وكانت أمي تقلق علينا أكثر من نفسها، فصرخت مرة قائلة: "ماذا سيحلّ بزوجي وبأولادي ياترى؟" وكنا كلنا مجتمعين حول سريرها ليلة وفاتها. وصادف اليوم الثاني من عيد الفصح، والذي كان ذكرى ولادة ليو أيضاً.

إن وفاة أمي غيّرت حياتنا والى الأبد. فقد تمكنتْ رعايتها المليئة محبة والمؤداة بكل تواضع وهدوء من جعل عائلتنا متماسكة خلال كل تلك الصراعات. فهي، بالحقيقة، بذلت نفسها في التضحية لأجلنا. فغالباً ما كانت تتخلى عن طبق طعامها لكي تغذيني أكثر. وكانت غالباً تحتاج مساعدة ودعم أكثر مما أنا كنت أقدمه لها. وكم تمنيت من يومها أن أعود لأعيش تلك الأيام ثانية لأخدمها مثلما كانت تخدمنا. لكننا إستطعنا من تقديم خدمة واحدة أخيرة لها. فقد ذهبنا كلنا ودفنّاها في المقبرة اليهودية. وحفر أبي أسمها على حجر القبر.

وبعد هذا صرنا أنا وجودت يتيمين (أي فاقدي أحد الوالدين) وإستطعنا الذهاب والدوام في الميتم البولندي. وإرتأى والدي أن نذهب هناك لنحصل على رعاية أفضل، فذهبنا. وبالرغم من أننا كنا بولنديي الجنسية ونعرف اللغة إلا أننا لم نحس وكأننا في بيتنا بين أولئك البولنديين الكاثوليك. فكانت صلواتهم تذكرنا بالمذابح التي أصابت الأحياء اليهودية لمدينة روزفادوف. وبدا الأمر لنا بأنهم كانوا يصلون للتماثيل – والتي كانت تعتبر وثنية بالنسبة لنا – فأبقينا أنفسنا على مسافة متحذرة منهم.

مما لاشك فيه، كان مستوى معيشتنا بالميتم أفضل. فكانت لنا ملابساً نظيفة وطعاماً أكثر، لكنني لم أجْنِ صحة جيدة هناك. فبعد أن أتخمت نفسي بالأكل في عددٍ من وجبات الطعام في البداية، فقدتُ شهيتي بعد ذلك. وبدأت أشعر بالمرض في الليالي. فقد أصبحت كَدِر في المشاعر وأخذت في التركيز فقط على كيفية نجاتي. وكنت على الأكثر قد أكملت سن الثالثة عشرة في ذلك الميتم إلا أنني لا أظن بأنني كنت قد إنتبهت الى هذا الأمر في وقته. وفقدت مرحلة بلوغي *bar mitzvah* في تخبطي الخارجي والداخلي لتلك الأسابيع القليلة في سمرقند.

7. أطفال طهران

في شهر آب من عام 1942 قامت الحكومة البولندية المنفية بجهود لإجلاء الأيتام البولنديين من روسيا. فالكثير منهم مات إما جوعاً أو مرضاً والبقية كانوا بالكاد على قيد الحياة. فبين أولئك المقاربين على العشرة آلاف طفلاً مِمنْ تم إجلائهم كان تقريباً هناك ثمانية مئة الى ألف طفل يهودي. وقد سمعنا بفرصة الخروج هذه ونحن في الميتم وأخذنا في مناقشة الأمر: "ماذا سنفعل؟"... لم يكن قراراً سهلاً لأنه كان ينطوي على عدم رؤيتي لأياً من أفراد عائلتي ثانية. على أنني أحسست بعدئذ بتأنيب الضمير لأني تركت والدي.

لقد تم وضعنا في قطار وجيء بنا الى مدينة " كراسنوفودسك Krasnovodsk " في تركمانستان والمطلة على بحر قزوين. وهناك أخذونا على متن السفن. وكان يوجد بالتأكيد حوالي عشرة آلاف نفس في تلك السفينة وجرى حشرنا فيها كسمك الساردين المعلب. فلم يكن هناك أية غرف أو ما شابه لذلك؛ فكنا مجرد نستلقي على ظهر المركب أو تحت ظهر المركب.

ولا أتذكر جيداً مدة تلك السفرة – ربما 36 ساعة. بعدئذ وصلنا الى ميناء يدعى بهلافي في بلاد فارس (إيران). وكانت الدنيا صيف، فخيمنا على الشاطيء الرملي.

وأول مرة، وبعد عدة أشهر، أكلنا هناك طعاماً مضبوطاً: وكان على الأغلب لحم البقر المعلب والحليب المركز من أمريكا. غير أن صحتي كانت قد أخذت في التدهور في ذلك الوقت ولم يكن لدي أية شهية للأكل. وأتت الوكالة اليهودية الى ذلك المخيم تبحث عن أطفال يهود. وكانوا قد شرعوا في تجميع الأطفال في طهران، آملين في إرسالهم الى فلسطين. وكان الحلفاء يرسلون الإمدادات بإستمرار الى روسيا عن طريق طهران وبحر قزوين فلذلك كانت الكثير من الشاحنات ترجع فارغة من بهلافي الى طهران.

وجعلونا نركب هذه الشاحنات – حوالي عشرة الى خمسة عشر طفلاً في كل منها. وكانت الطرق خطِرة، وشديدة الإنحدار، وضيقة. وكانت توجد فيها مجرد بعض الأماكن القليلة لتجاوز العربات الأخرى، وكان طريقنا مليء بالعربات الخربة. وعندما كانت الشاحنات تترنح على طرقات الجبال كان مرضي يشتد ولم أقدر أن أمسك نفسي عن التقيؤ وزادَ الألم في معدتي. وكنت أصرخ من شدة الألم. ودفعني سوء حالتي الى محاولة رميّ نفسي من الشاحنة إلا أن أحدهم أمسك بي والحمد لله. وأعتقد بأن الطريق الى طهران إستغرق أكثر من يوم كامل، لأننا توقفنا في طريقنا عند مكان ما لنبيت الليل فيه. وكان يوجد معسكر للجيش البولندي قرب طهران واحتوى قسماً خاصاً للأيتام اليهود. وجرى تصنيفنا وتوزيعنا الى مجاميع بحسب العمر والجنس، فسكنتُ مع 40 – 50 ولداً في خيمة كبيرة، حيث نمنا على الحصران. وكان في وسط تلك الخيم اليهودية دكاناً يبيع سلعاً متنوعة ومطبخاً لتحضير الطعام.

كان لدي إسهالاً بإستمرار وكانت شهيتي للأكل ماتزال معدومة. فكان وزني أقل من 30 كيلوغراماً وأصبحت واهناً جداً. فأمسيت جلد وعظم كصور الأطفال التي تراها الآن عن دول العالم الثالث. وأصبح منظري يكسر القلب مما دفع بأعضاء الوكالة اليهودية أن يصطحبونني معهم في رحلاتهم الى يهود طهران الأثرياء لتحفيز تعاطفهم مع الحركة ولجمع التبرعات.

وما كان لي شيئاً في المعسكر غير التجول فيه وأنا خائر المعنويات أو الجلوس مع أختي جودت لأصبَّ بعذابي أمامها. وبدأت ألوم نفسي على كل ما قد أسئت معاملة والدي وعلى هجراني لوالدي. وأخذت الكوابيس تراودني ليلاً وحتى وددت في مفارقة الحياة، إلا أن جودت كانت دائماً وفيّة لي وحاولت تشجيعي ورفع معنوياتي. وكان عمرها مجرد أحد عشر عاماً في

حين كان عمري ثلاثة عشر، ولا أعلم كيف كان سيكون لي النجاة من دونها. لذلك سأبقى شاكراً لها ومن أعماقي على أسلوب معاضدتها لي.

وحاول أعضاء الوكالة اليهودية تنظيمنا وتزويدنا بنشاطات من تقاليدنا وتثقيفنا بعض الشيء. فكان هناك بعض المرشدين لكل 50 طفلاً فضلاً عن وجود شخصاً مسؤولاً عن المخيم بأسره. ولم يكونوا كلهم من فلسطين. فبعضهم كان لاجئاً أيضاً، مِمنْ قد أفلح في الخروج من روسيا بطريقة أو بأخرى. وكانوا على إتصال مع الوكالة اليهودية الفلسطينية التي حاولت مساعدتنا على الهجرة. ولم يكن لنا أية مدرسة أثناء تلك الفترة هناك، لكن المرشدين علمونا الأغاني عندما كنا نجلس حول النار في الأمسيات. وما أزال أعرف بعضاً من هذه الأغاني لحد الآن، مثل أغنية " *Arim dem Fajer* ".

وصادف أن وُجِدَ رجلاً من بين المرشدين أصله من روزفادوف والذي إستطاع التعرف عليّ، لكنه عندما رأى الحالة التي أمسيتُ بها أحضرني في الحال الى السيدة " سيبوره شيرتوك Zipporah Shertok "والذي صار زوجها لاحقاً رئيساً للوزراء في إسرائيل. وكانت هي مسؤولة آنذاك على الأيتام في طهران في بيت الأطفال اليهود "Beit ha-Yeled ha-Yehudi". وقد أراها كيف كان الجلد يتقشر في الجهة الخلفية لأرجلي وتكلم معها بالعبرية التي لم أكن أفهمها آنذاك. وقد تأكد لهم من إصابتي بمرض الحصاف، وهو مرض يصيب الجلد بسبب نقص اللحوم في الغذاء. وعليه، فقد سمحوا لي ولولد واهن آخر من الدخول الى مخزن المخيم واختيار كل ما كان يروق لنا من طعام. وكان لنا أيضاً طلب أي نوع من الطعام من مطعم الجنود. فكنتُ دائماً أطلب الهمبركر والبطاطا وسرعان ما أخذ وزني بالإزدياد.

ولكن لم يمضِ وقتاً طويلاً حتى تمرضت ثانية وتم إرسالي الى المستشفى. وتم تشخيص مرض الجرب لديّ، الذي كان منتشراً في المخيم، فوضعوني في قسم الحجر. وبينما أنا كنت هناك سمعنا بخبر سفرنا كلنا الى فلسطين. فأصابني الهلع لخوفي من أن تسافر المجموعة من دوني وأترك هناك. فتوسلت ليأذنوا لي بترك المستشفى. وأخيراً تمكنت من الخروج ليس أكثر من يوم أو يومين قبل موعد مغادرة المجموعة.

ووصلنا مدينة طهران في آب 1942 ومكثنا هناك حوالي ستة أشهر. بعدئذ غادرناها متوجهين الى فلسطين. وكان أسرع طريق لنا هو، بالحقيقة، عبر البر قاطعين العراق، إلا أن العراق لم يسمح لنا بالمرور خلاله فلذلك تحتم علينا إتخاذ طريقاً ملتوياً غير مباشراً للوصول الى فلسطين. فسافرنا في قطار الى ميناء يقع على البحر العربي. ثم جعلونا نركب بارجة نقل

عسكرية متوجهة الى كراجي في الهند (حالياً باكستان). وأبحرنا ضمن قافلة تتكون من نحو 15– 20 بارجة وكانوا يحذروننا بإستمرار من إحتمالية إضطرارنا لترك البارجة والقفز الى البحر في أية لحظة أثناء الإبحار. وكان هذا في نهاية عام 1942 حيث كان القتال مع اليابانيين محتدماً. فكانت الطائرات الحربية تتقرب أحياناً من البوارج فيصيبنا الرعب.

وأما على ظهر البارجة فكنا ننام على الأرجوحات الشبكية، عدة أطفال معاً. وأتذكر تذوقي لمربى البرتقال أول مرة هناك، وتعلمنا أيضاً بعض الأغاني الإنكليزية من الجنود البريطانيين. وعندما بدأتُ لاحقاً في العيش سوية مع الإنكليز صرت أحاول غناء أغنية " أرنبي الصغير يستلقي على مياه المحيط My Bonnie Lies over the Ocean ". فتمتعوا لسماعهم هذه الأغنية وخصوصاً عندما كنت أخلط كلماتها رأساً على عقب. طبعاً لم يكن لفظ الكلمات بصورة مضبوطة مهماً بالنسبة لي إلا أنه كان إحتكاكي الأول مع اللغة الإنكليزية.

لا أذكر كثيراً عن كراجي سوى أنها كانت حارة جداً. فقد مكثنا هناك في مخيم يقع على حدود كراجي ولابد أننا تعلمنا المزيد من الأغاني والرقصات من مرشدينا. وكنت قد إسترجعت شهيتي للأكل آنذاك إلا أن الطعام كان يوزع على شكل حصصاً فلذلك كنت دائماً أشعر بالجوع. وبعد 3 – 4 أسابيع ركبنا البحار ثانية وأبحرنا بمحاذاة مدينة عدن ثم البحر الأحمر ورسينا في مدينة السويس. ثم سافرنا من هناك بواسطة قطار الى فلسطين.

8. فلسطين

لقد وصلت فلسطين في شهر شباط من عام 1943. وبدا لي بأن البلد كلها كانت بإنتظارنا وقد تم إستقبالنا بحرارة وترحاب كبيرين. فعندما كان قطارنا يمرّ بالمحطات عبر طريقه من قناة السويس كنا نرى وفوداً من أطفالٍ وغيرهم حاملين الورود ويلوّحون لنا ويحيونا. وقد تم تسميتنا بأطفال طهران. ولا أظن بأننا كنا نُدعى بهذا الإسم في طهران ولكنهم دعونا به في فلسطين.

وأخَذنا القطار من السويس الى معسكر إستقبالي مؤقت كان يدعى أتليت Atlit – وكان هذا حوالي عشرين كيلومتراً جنوب مدينة حيفا. وكان أغلبنا معتاداً على حياة أشبه بحياة أطفال الشوارع. فصار بعض الأولاد يسرقون ويسببون جميع أنواع الأذى حتى أثناء الرحلة. فقد كانت مجموعتنا تتميز بالخشونة – كان الله في عون مرشدينا. إلا أنهم أبدوا لنا محبة كبيرة وتمكنوا تدريجياً من كسب ثقتنا وأظن بأنهم أدركوا لاحقاً من أنهم كانوا متساهلين معنا بعض الشيء ونائمين على آذانهم. فما طالبونا بكثير من التهذيب كما يجب لأنهم رثوا لحالنا لأننا كنا أطفالاً مساكين معدومين. فكلما كان يوضع الطعام على المائدة، فإذا بالأطفال يتلاقفون أكثر

ما بوسعهم، ويخبئون قسماً منه الى ما بعد أو لغرض مقايضته. وعند توزيع الملابس كان الأطفال يغتنمون فرصة إلتفات الشخص المعين لتوزيعها ليعودوا ويقولوا: " لم أستلم حصتي بعد" ليحصلوا على المزيد. وأكثر ما أتذكره عن مخيم أتليت هو أنه كان جبلاً من البرتقال. فلم يصدق أحد منّا بأنه كان لنا أن نأكل الكثير من البرتقال وعلى قدر ما نشاء. فكنا نظل نأكل ونأكل الى أن كنا تقريباً نمرض.

وقد تحقق حلمي فكنت بالحقيقة في بلد إسرائيل " *Eretz Yisrael* ". فياله من إرتياح حين وجدنا أنفسنا في أمان تام، إلا أننا كنّا قلقين على أحبائنا – بالأخص أهالينا. ولم نفكر في قضايا سياسية كبيرة في حينها. ومثلي مثل أغلب الأولاد، فقد صرفت سنة أو سنتين في إسرائيل محاولاً التعامل مع كل ما مررت به من تجارب في الحرب. فكانت ترتادني الكوابيس وغالباً ما كنت أستيقظ في الليل صارخاً. وكنت عصبياً الى حد كبير وأفقد مزاجي بسرعة. ولم يختلف بقية الأولاد عني.

كان عمر الأطفال يتراوح ما بين السنة والخمسة عشر. وتصنيفنا الى مجاميع كانت مهمة شاقة. فحاولوا في البداية تشخيص بعض المشاكل الصحية المختلفة التي كانت متفشية بيننا: مثل القمل والجرب وسوء التغذية...إلخ. وقد تم إرسالنا الى مناطق مختلفة لغرض الشفاء. فتم إرسالي أنا وجُودِت الى أورشليم، وسكنّا في مدرسة داخلية للبنات تدعى " بيت تزيروت مزراخي Beit Tseerot Mizrachi ". فإن بنات تلك المدرسة أخلنْ المكان لنا وإنتقلن الى "كيبوتس kibbutz " (والكيبوتس هو مجمع سكني تعاوني يضم جماعة من المزارعين أو العمال اليهود الذين يعيشون ويعملون سوياً) ومكثن هناك مدة 6 – 8 أسابيع. وتم تجهيزنا هناك بملابس جديدة وطعاماً جديداً. وكانوا يأخذوننا في جولات راكبين الباص. فقد زرنا كيبوتساً ومواقع مختلفة في أورشليم وفي أنحاء إسرائيل كلها.

بعد مضي 6 – 8 أسابيع من إسترداد العافية بدأوا يقررون المكان الذي يجب أن ننتقل إليه. وكانت الأم المؤسسة لحركة الهجرة للشباب *Youth Aliyah* وهي سيدة يهودية أمريكية معروفة وتدعى " هينرايته شولد Henrietta Szold ". وكانت كبيرة السن إلا أن أولئك الأولاد كانوا يسكنون في قلبها وعملت على مقابلة كل منهم على حدة. وسألتنا عن خلفية أهالينا وعن أمنيتهم لنا نحن أولادهم.

سألتني مع جُودِت : " هل كان والديكما من المتدينيين الأصوليين؟" وأجبناها: "نعم". في نهاية الأمر أرسلونا الى قرية تعاونية تدعى "مشاف سدي ياكوف Moshav Sde Yaacov ".

وكانت هذه القرية قرية صهيونية أصولية معاصرة. كانوا متدينيين ولكن ليس مثل اليهود الأرثوذوكس المتشددين Hasidic Jews بلحية وخصل الشعر الجانبية، بل كانوا على الأكثر حليقي الوجه وكانوا صهيونيين جداً، وناساً متفانيين جداً. وقد باشرتُ في الدوام في المدرسة هناك أيضاً وتعلمت العبرية. وكان هذا شيئاً جديداً. إذ أن قسماً منّا قد تعلم سلفاً كتابة العبرية حينما كان في بولنده ولكن لم يعرف أي واحد منّا كيف يتكلمها.

كان لي صديق في ذلك الحين يدعى يعقوب فنكلشتاين Jakob Finkelstein وكان أكبر مني سنّاً، سنة تقريباً. كان أول لقاء لنا هو عندما لعبنا معاً الشطرنج على متن سفينة كانت تبحر نحو كراجي Karachi. ولا أدري كيف إشتبكنا في أول عراك لنا وإنتهى الأمر معي بأنفٍ ينزف. ولكن بعد هذا العراك تصادقنا ودامت صداقتنا لسنين طوال. وقد أمضينا ساعات كثيرة نتحدث معاً كما كان يدعم بعضنا بعض – وأعتقد بأن يعقوب، على الأكثر، أخذ على عاتقه مسؤولية حمايتي في الأشهر الأولية. وكان ليعقوب أخت إسمها زَهافه Zahava والتي كانت صديقة أختي جُودِت المفضلة. وكان يعقوب يعرف ويفهم العالم أكثر مني، وكان يعرف كيف يستفاد كل الإستفادة من أي موقف يصادفه. إلا أنه كان مثيراً للدهشة: فمن جهة كان يستغل الأخرين بدهاء والى درجة السخرية؛ ومن جهة ثانية كان صديقاً وفياً جداً لي.

وإكتشف يعقوب مرة عندما كنا في المدرسة الداخلية في أورشليم بأنه كان هناك هاتفاً، إذ كان شيئاً غير معروفاً لنا نحن الأولاد في ذلك الحين. فلذلك أراد تجريبه ومعرفة كيفية عمله. فنظر في دفتر العناوين فوجد رقم هاتف إحدى المنظمات الدينية فإتصل بهم هاتفياً لغرض الهزل فقط، فقال لهم: " لقد تم غسل أدمغتنا هنا. وهم يجبروننا عن التخلي عن إيماننا الديني. فهل تستطيعون رجاءاً مساعدتنا؟" فمثل هزل كهكذا كنا نلهو به نحن الأولاد.

لقد تم نقلنا أنا وأختي جُودِت مع يعقوب وأخته زَهافه الى القرية التعاونية نفسها Moshav Sde Yaacov . وكنت لا أزال مضطرباً كثيراً ولم أكن قد تأقلمت بعد على المكان الجديد، فلهذا السبب صادفتني الكثير من المشاكل. ففي البداية كنتُ مع إحدى العوائل، ولكنني لم أنسجم مع ربة البيت. وسرعان ما وضعوني مع عائلة أخرى، ولكنني حصلت هناك على بعض المصادمات مع رجل كانوا يستأجرونه لإدارة حقلهم لأن إبنهم كان يحارب ضمن الألوية العسكرية اليهودية. وكان أصل ذلك الرجل هنغاري وفي سنه الأربعين. وكان طويل القامة وقويّ البنية ومزارع جيد – وكان متديناً كثيراً.

في الوقت الذي يسبق رأس السنه والذي يدعى *Sleekhot* (أي طلب المغفرة) يعتاد المتدينون النهوض في الصباح الباكر ليستغرقوا في وقت يخصصونه للصلاة طالبين المغفرة عن السيئات التي فعلوها خلال السنة المنصرمة. وهذا الرجل الأجير حاول إجباري على النهوض مبكراً جداً – حوالي الثالثة أو الرابعة فجراً – ومن ثم الذهاب معه الى الكنيس. في اليوم الأول رفضت النهوض. وفي اليوم الذي تلا سكب ماءاً بارداً عليّ ليقعدني من نومي، ولكني رفضت كذلك. وعندما جلسنا في مساء ذلك اليوم حول مائدة العشاء قال: "والآن يايوسف، سأفعلها ثانية غداً إذا لا تنهض." فإشتطت غضباً، ورميت عليه سكينتين. فقد فقدت أعصابي كلياً. ورميت بنفسي على الأرض وعملت مشهداً شنيعاً. فصرخت : " أنت لست بوالدي، وليس لك أية صلاحيات عليّ ". ولقد إرتعبوا فعلاً. وفي نهاية الأمر، تم تهدئتي غير أنه لم يتكلم معي على الإطلاق منذ تلك اللحظة. وإستمريت على المساعدة في الحقل إلا أنه كان يتجاهلني.

لماذا بدأت أثور ضد الديانة اليهودية؟... أنا أعتقد بأن جانباً من الأمر كان بسبب فكرتي عن الله على أنه متشدد وسوف يعاقبنا. إذ كنت أحسّ بالذنب جراء وفاة أمي وجراء تركي لوالدي في الإتحاد السوفيتي. فكنت أشعر بالخوف.

على أية حال، كان الكثير منّا غير سعيد في تلك المستوطنة التعاونية. وقد أرسلنا وفداً الى أورشليم بعد مضي ثمانية أشهر لنعبر من خلاله عن عدم إرتياحنا. فقرروا نقل الأكبر سنّاً من هناك وإبقاء الصغار. فذهبت مع الأكبر سنّاً – مابين 14 – 15 سنة – الى مدرسة إعدادية الزراعة والتي كانت تدعى "ميكفه إسرائيل Mikveh Israel "(ومعناها: أمل إسرائيل). فبذلك غادرتُ قرية موشاف سدي ياكوف Moshav Sde Yaacov مع يعقوب في حين ظلت جْودِت وزَهافه هناك مدة ثلاثة سنين تقريباً.

9. في إعدادية الزراعة

يقال عن "ميكفه إسرائيل Mikveh Israel " بأنها أقدم مستوطنة صهيونية في فلسطين، ومع ذلك فقد كان هناك عدداً من اليهود يسكنون هناك بين العرب من قبلها. وقد أسس هذه المستوطنة أحد المحسنين اليهود من فرنسا عام 1870 وإسمه جارلس نتر Charles Netter ليدرب الشباب على الزراعة. وقد أصبحت هذه المدرسة لاحقاً من أشهر مدارس الزراعة في الشرق الأوسط. فبالإضافة الى تعليم الطلاب، كانت تغطي مساحتها الواسعة جميع مجالات الزراعة: فكانت لها 60 – 80 رأساً من الماشية والغنم وبستاناً يحوي جميع أنواع الأشجار. وحتى كانت لهم حديقة نباتية تضم الكثير من النباتات الفريدة من نوعها.

وكان في المدرسة قسمان: القسم الديني والذي كان يتكون أغلبه من المهاجرين مثلنا، والقسم العلماني والذي كان يتكون أغلبه من طلاب من الكيبوتسيم والمجتمعات التعاونية. وكان أولئك اليهود العلمانيين يؤلفون غالبية السكان في إسرائيل في ذلك الوقت. وكان القسمان يسكنان بصورة معزولة، ولها صفوف معزولة بالرغم من أنهما كانا في مدرسة واحدة.

أما أطفال طهران فكانوا كلهم سوية ضمن مجموعة واحدة، وهي المجموعة الدينية. وكان لنا دورة دراسية مدة عامين. وكان لنا أن نعمل في أي فرع من فروع الزراعة في السنة الأولى، وكنا نتخصص في السنة الثانية في أحد الإختصاصات مدة ستة أشهر، وإختصاصاً إضافياً مدة ثلاثة أشهر إضافية.

وكان معلمونا هم أيضاً مرشدينا التوجيهيين في نفس الوقت وحاولوا مساعدتنا. وأغلبهم كان من اليهود الأصوليين الأرثوذكس المعاصرين وغالباً كنت أسبب الإزعاج في الصف. وفي نفس الوقت بدأت أطرح الكثير من الأسئلة وحتى عن موضوع الأيمان. فمن جهة كنت لا أزال أثور ضد فكرتي عن " الله المتشدد "، إلا أنني بدأت من جهة ثانية أصارع مع ما جرى في الـ هولوكوست (إبادة اليهود في ألمانيا) – والتساؤل: لماذا سمح الله بهذا أن يحدث؟... وكان بعض الأطفال معنا قد جاءوا توهم بصورة مباشرة من معسكر " بوخن فالد Buchenwald " الألماني للإعتقال. وأخذوا يخبروننا عما حدث في ألمانيا. وكان أولئك الأطفال من نفس عمرنا حتى يمكن أصغر، غير أنهم كانوا يبدون كالعجزة، من حيث أسلوب كلامهم وتصرفاتهم. وقد هزّت هذه الأمور بَدَنُنا أجمعين.

في حوالي شهر نيسان من عام 1944 ذهب صفنا المدرسي بأكمله من ميكفه Mikveh الى " كيبوتس تيرات زفي Kibbutz Tirat Zvi " وهو كيبوتس ديني في وادي "بيت شعان Beit Sha'an ". وكان الكيبوتس لديه معسكر شغل. فسكنا في خيم وإشتغلنا هناك مدة شهرين. وصادف أن كنت واقفاً في أحد الأيام في طابور إستلام الطعام وبدأت التحدث مع فتى كان يكبرني بضعة سنوات، ربما كان عمره مابين الـ 18 – 20. وعندما أخبرته بأنني قد جئت من فرانكفورت وبأن أسمي كان " ناخت Nacht " أخبرني بأنه كان يعرف عائلتي. فسألته: "ما إسمك؟" وعندما أخبرني عرفته في الحال وقلت له: "أتذكرك، وكان لكم دكاناً للسكريات! وكان يقع مجرد في نهاية الشارع الذي كنا نسكن فيه. فقال: "هذا صحيح!" والأمر حقاً عجيب لأني لم أكن أكثر من 4 سنوات من العمر عندما تركنا فرانكفورت.

وكانت تلك المرة هي المرة الأولى التي أعيش فيها ضمن كيبوتس، لكن الحياة في الكيبوتس لم تعجبني آنذاك. إذ كنت لا أزال أحاول التعامل مع كل ما مررت به من تجارب عن الحرب ومع ذكرياتي في روسيا وإيران. وعندما كنا نخبر الناس عما مررنا به من تجارب في روسيا فكانوا وببساطة لا يصدقوننا. فهم لم يريدوا أن يصدقوا بما أخبرناهم. إذ كان هناك

تعاطف رهيب نحو الإتحاد السوفيتي لأنهم كانوا يحاربون ضد هتلر. بالإضافة الى ذلك، كانت لهم فكرة مثالية عما كان يجري في روسيا، بلد الإشتراكيين.

وعندما عدنا الى ميكفه، أسس بعض الطلاب مجموعة هاخشَره *hachsharah* (وهي مرحاة تدريبية للتهيوء للعيش في الكيبوتس) على أمل تأسيس كيبوتس. وقد إنضموا لاحقاً الى كيبوتس كفار إيزيون Kibbutz Kfar Ezion الذي يقع في جنوب أورشليم. (وقد فقد الكثير منهم لاحقاً أرواحهم والقسم الآخر تأسّر عندما إجتاحت القطعات العسكرية الأردنية كيبوتسهم في حرب الإستقلال لإسرائيل). وكان عدد من طلاب صفي جزءاً من هذه الجماعة إلا أنني كنت أعارضها. فلم أقبل تدينهم وكنت ثائراً كثيراً جداً.

وفي حوالي ذلك الوقت، إتخذتُ أنا قراراً ضميرياً لمعارضة الدين بجملته. وقلت لنفسي: "أنني لا أؤمن بالله، ولا أؤمن بقوة خارقة للطبيعة، وسوف لن أقبل أي شيئاً لا أفهمه بعقلي". وقد طرحت الكثير من الأسئلة وكانت لنا نقاشات ساخنة في الصف.

وعند إقتراب يوم الغفران *Yom Kippur* (أي يوم التكفير عن الذنوب) تهيأ كل فرد من المجموعة الدينية للصوم ولكنني وكنتيجة لقناعاتي الشخصية آنذاك قررت وأنا صبي في الخامسة عشر من العمر، أن لا ألتزم بهذا أيضاً. لم تكن هذه المناسبة شيئاً صغيراً لدى المتدينين، فكان يُعَد يوم الغفران تجربة رائعة، غير أنني قررت عدم الصوم في يوم الغفران بل أضئت المصابيح وشربت ما شئته. فلم أرد أن يكون لي أية علاقة به. فكنت أعتقد بضرورة تطبيق كل ما أراه صحيحاً – وليس التكلم عنه فقط – ومن ثم قبول عاقبة الأمر.

وغالباً ما كنت وحيداً في ذلك الوقت بإستثناء صديقي يعقوب. فهو بالرغم من دوامه في الصف الدراسي الأدنى مني إلا أننا كنا لا نزال معاً وكنا نتحدث معاً كثيراً. وقد صممنا أن نخرج معاً ويعاون واحدنا الآخر بعد إكمال دراستنا. غير أن يعقوب كان أكثر واقعي مني. وقد صار عولمي كذلك، وكل ما كان يتوخاه هو أن يتوفق من خلال كسب الصفقات في المجتمع. وهو لم يعارض بشدة النظام كما أنا فعلت. أما أنا فقد جعلتُ الحياة تبدو صعبة عليّ بإتّباعي لمثالياتي.

وحتى كان لي مرة موقفاً عنيفاً نحو تلك المجموعة التي ذهبت الى الكيبوتس. فقد سكنّا معاً في قاعة مساكن الطلبة نفسها، غير أن الأولاد في هذه المجموعة تمسكوا بعلاقتهم سوية وأهملوني. فذهبت يوماً الى أحد قادة حلقاتهم وضربته ضربة قاسية من شدة غضبي. فإنذهل

كثيراً لأنها لم تكن متوقعة أبداً. وسمعت فيما بعد بأنهم كانوا يخططون ليعتصبوا ضدي وينتقموا مني. ووجد بعض الأصدقاء مأوى لي في القسم العلماني من ميكفه Mikveh . فمكثت هناك عدة ليالي الى أن هدئت الأمور. ولكن معلمي المدرسة كانوا على يقين بأني كنت ذات تأثيراً سيئاً. وتمكنوا من إقناعي على ترك المدرسة والإعتماد على الذات. وأنا بالحقيقة لم يبق لي سوى بضعة أشهر لإكمال دراستي ذات السنتين.

وبالحقيقة فإنهم قد حظروا علينا، أنا ويعقوب، اللقاء معاً. فبقى يعقوب بالمدرسة ولكننا إستمرينا في لقاء أحدنا للآخر خلسة في الظلام. فكنا نتمشى معاً وعزمنا أن يتمسك بعضنا ببعض. ووددتُ مغادرة المدرسة وإيجاد عملاً وكسب بعض المال، ومن ثم يغادر هو أيضاً لنعيش متعاضدين. ووددنا صبّ مدخولاتنا في صندوق واحد مشترك. ولم يكن لدى أيّ منّا إهتماماً بالزراعة. فهو كان يطمح أن يصير كهربائي، حيث صار لاحقاً.

وكان هناك ولداً آخراً من بولنده في ميكفة إسمه " بنيامين بودنر Benjamin Bodner "، مَنْ كان قد هرب من قطار كان متوجهاً الى أحد معسكرات الإعتقال، ومن ثم تمكن من الوصول الى إسرائيل. وكان هذا غير سعيد في المدرسة أيضاً وقد تحدثنا أنا وهو حول موضوع مغادرة المدرسة. وأخبرني عن الـ بالماخ Palmach ، وهي مجموعة قتالية تُعد من صفوة قوات الـ هاجانا Haganah ، أي جيش المقاومة اليهودية. وأعرب عن إعتقاده بضرورة إنخراطنا وتجنيد أنفسنا لهذه المجموعة، فذهبنا معاً. وربما كنت أظن بوجود شيئاً من الإفتتان في الأمر، على أني لم أكن مندفع له. فتم قبوله دوني. ولا أعرف سبب رفضهم لي، ولكنني كنت شديد العصبية فضلاً عن صغر سنّي بسنة واحدة أقل من بنيامين. وقد قُتِل بنيامين لاحقاً في الأيام الأخيرة من حرب الإستقلال. وقد جاء والده إلى إسرائيل بعد أن نجا من معسكرات الإعتقال فوجد إبنه مقتولاً.

وقد تم تدريبنا على الأسلحة في ميكفة إسرائيل. وتعلمنا كيف نُركّب البنادق والمسدسات. وتدربنا على التصويب على الهدف، وعلى التسلق والقفز الى البيوت، وخُضنا تدريبات كما لو كنا قد تعرضنا الى هجوم. حتى أننا ذهبنا الى الصحراء لممارسة مختلف التدريبات العسكرية. وكانت هناك مشاكل جمّة مع البدو آنذاك. فكانوا يستعملون العصيان في القتال فتعلمنا كيفية القتال بالعصيان – كيفية الضرب وكيفية الدفاع. فمن خلال ذلك التدريب كنت عضواً غير رسمياً في قوات الـ هاجانا ، ولكن عند مغادرتي للمدرسة فقدت إتصالي معهم في ذلك الوقت.

10. ويبدأ البحث

عندما غادرت ميكفة، بدأت البحث عن عمل. وكانت الألبان واحدة من أختصاصاتي في ميكفة. وبشيء من المساعدة من قبل المعهد، حصلت على شغل في مزرعة للحيوانات تنتج الألبان والتي لم تكن بعيدة جداً عن تل أبيب. فكان المزارع يوزع الحليب في تل أبيب بعربته التي يجرها حصان. ولما كان على الناس بدء أعمالهم مبكراً بسبب حرارة الجو، إضطر المزارع الى توزيع الحليب في الفجر حين كان الناس ما يزالون في بيوتهم. وكان عليّ النهوض مبكراً في الصيف وفي الساعة الواحدة لحلب الأبقار. وأما في الشتاء فكانت في الساعة الثالثة. وقد أعطاني غرفة وطاولة وأجراً صغيراً. فكان ذلك أول عمل لي وأصبحت سعيداً جداً لتمكني من الوقوف على رجليّ.

لقد عملت في تلك المزرعة مدة أربعة أشهر تقريباً، وفي بداية الأمر كانت الأمور تسير على ما يرام. إلا أني صرت على خلاف مع زوجة المزارع وكان عليّ المغادرة فجأة. فقد قلت لها بأني لم أطق أعمل لها بعد، فإذا بي تراني أبحث عن عمل مرة ثانية.

كان لديّ بعض الأقارب في إسرائيل، مثل خالي حايم سيمحا Chaim Simcha الذي كان أصغر من أمي وكانت علاقته حميمة جداً معها. وبسبب محبته الكبيرة لأمي كان يَكنُّ محبة كبيرة لي أيضاً. وقد شاهد أسمي وأسم أختي في قائمة الأسماء ضمن القادمين مع أطفال طهران، فعندما وصلت أنا أولاً الى أتليت، جاء باحثاً عنا. وبينما جلسنا في الباص للتوجه الى أورشليم فإذا به فجأة واقف هناك بجانب الباص يتكلم معنا من خلال النافذة. فكان هو شخص كهذا، حار القلب ومتفانٍ. وطبعاً سألني عن والدتي ولكنني لم أكن حساس بالكفاية، فأخبرته

هناك، وعلى الفور، من أن أمي لم تعد على قيد الحياة وقد وافاها أجلها، فإذا به قد أصيب بصدمة مروّعة.

وقد صار بيت خالي حايم وعمتي إيلزه مثل بيتي الثاني. وكنت أزورهم دائماً ومتى سنحت الفرصة لي بذلك عندما كنت أداوم في ميكفة أو في المزرعة التعاونية. فكنت أحس هناك كما لو كنت في بيتي وقد عاملوني كإبنهم تماماً. وتميز حايم سيمحا بأنه كان باهراً ويملك رؤية واسعة الأفق عن العالم. وكان متديناً، ولكنه كان يُعتبر في أوساطه على أنه شخصاً متفتح – العقلية ومفكراً عميقاً. وكان رجلاً محترماً جداً وإعتاد الناس على زيارته من أجل المشورة حول أمورهم الشخصية أو حول المشاكل في القرية.

وأكثر من تأثير حايم سيمحا عليّ كان تأثير إبنه سامي، فقد أثـّر فيّ بصورة أكبر وأعمق. فقد كان سامي يكبرني بخمسة سنوات، ولكنه كان دائماً يعاملني كصديق له، لا فرق. وحين تركت مزرعة الألبان إلتجأت الى سامي لطلب العون، لأنني لم أفقد عملي فقط بل غرفتي أيضاً. كان لسامي سكنه الخاص في تل أبيب؛ وسمح لي بالسكن معه ومن ثم ساعدني على إيجاد سكناً لي. فكان يقاسمني في كل شيء ولم يطبل كثيراً على فضله عليّ. فأعجبتني هذه الروحية السخية للغاية.

وبتواجدي هناك فقد قابلت الكثير من رفاقه كذلك. وكان سامي على الأرجح فرداً في الجماعة السرية التي شُكِلت لمحاربة البريطانيين. وعندما بدأت العمليات الإرهابية تُشَن على البريطانيين، بسط البريطانيون أيديهم على كل من كان له إرتباط مع تلك الجماعات. وقد أُعتقل سامي ولكنهم لم يجدوا شيئاً ضده على ما أظن. فتم إرساله الى معسكر إحتجاز مثله مثل غيره، ولكنهم أطلقوا سراحه لاحقاً وتم إدراج إسمه في لائحة المتعاطفين. وصار تحت الإقامة الجبرية وكان يتحتم عليه تسجيل الحضور لدى الشرطة يومياً. وفي ذلك الوقت زاره العديد من رفاقه في بيته.

وخلال السنين التي تلت أجريت الكثير من النقاشات مع سامي ورفاقه والتي ساهمت في تغيير نظرتي عن الحياة. فإن سامي لم يعش لنفسه. فألهمني ليكون لي رؤية أوسع، أي التفكير والإنفتاح على حاجات الآخرين في العالم بأسره.

وبدأت أيضاً في ذلك الوقت بالقراءة والتفكير مليّاً ولاسيما فيما يخص الصراع من أجل العدل والأخوية، وفيما يخص معنى الحياة – وبخاصة عندما يجب على المرء أن يحيا من أجل

شيئاً يتجاوز حدود ذاته. فقد تعلمت اللغة العبرية منذ أن كنت في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ولكني لا أتذكر أني قرأت يوماً ما كتاباً قبل ذلك الوقت. أما الآن فصرت أذهب الى المكتبة بإستمرار. فقراءت كل كتب تولستوي ودوستويفسكي المكتوبة بالعبرية. فإشتريت وقرأت كتاب " الجريمة والعقاب " في ليلة واحدة. وحتماً لم أطق هضم كل شيء في الكتاب بل شيئاً ما ظلّ معي بالتأكيد. وقد تأثرت كثيراً بالكاتب الفرنسي رومين رولاند Romain Rolland – بمثالياته عن الصداقة والعدالة الإجتماعية – وبالأخص قصته عن انطوانيت واوليفر Antoinette and Olivier، والتي كانت تدور حول طفلين يتيمين عاضد بعضهما بعضاً في أوقات عصيبة. فهذا ألهمني لأن أصبّ جهودي مع يعقوب، والذي قد غادر مدرسة ميكفة إسرائيل آنذاك ووجد عملاً.

أخيراً وجدتُ سكناً وحتى عملاً، وجاء يعقوب ليقاسمني المعيشة. كنت أكسب 20 جنيهاً استرلينياً في الشهر وأدفع 10 جنيهات للإيجار، وأدخر بقية الـ 10 جنيهات للتوفير. وتشاركنا بكل ما كنا نكسبه من نقود واضعين أياها في صندوق مشترك. أما أنا فلم أعِر أية أهمية للنقود، بعكس يعقوب الذي كان أكثر مقتصد مني. وأخيراً تخلينا عن الصندوق المشترك وإقتسمنا النقود بالتساوي بيننا بحيث لا أحد منّا كان له أكثر من الآخر.

كنا نشتغل بِكدّ ولكن كان لدينا الكثير من المرح كذلك. فقد تفاخر يعقوب مرة بأنه كان قادر على أكل دزينتين من البيض بجلسة واحدة، ولكنني لم أصدقه. فقلت له بأني سأدفع ثمن البيض إذا تمكن من أكل الدزينتين. فوافق وإستعد فذهبنا وإشترينا البيض من الدكان. وإشتريت، متعمداً، بيضاً كبير الحجم مع شيء من الخبز ليؤكل معه – وفي أثناء ذلك بدأت أشعر بالقلق. أما يعقوب فقد أكل البيض والخبز وكل شيء. وخسرت الرهان!

وكنت في تلك المرحلة مابين الستة عشرة والسبعة عشرة من العمر، حيث كنت أصارع فعلاً مع معنى الحياة. ماهو الهدف من كل هذا؟... لم أكن أملك إيماناً، ولكنني لم أكن مقتنعاً بالعيش من أجل نفسي فقط. في حين كان يعقوب منشغلاً يحاول تحقيق مستوى معيشة جيدة وأوقاتاً سعيدة. ومع ذلك، رأيت عدم جدوى العيش مجرد من أجل تجميع الأموال ومن أجل كسب تقدير الآخرين. لأني كنت قادراً على رؤية مثل هذه الأمور من أنها لا تجعل الناس سعداء. وداومنا على العيش معاً إلا أننا أخذنا بالتباعد تدريجياً.

بالمقابل بدأت أنجذب وأتقرب أكثر وأكثر نحو سامي ورفاقه. وأتذكر بالتحديد أشعيا وحنّه، اللذان كانا مخطوبين، حيث ناقشنا معهما الكثير من القضايا. فكنا نوزن الفوائد النسبية لكل من

الرأسمالية والإشتراكية والشيوعية. وكانت هذه القضايا ذات معنى حقيقي لنا إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار الوضع السياسي في إسرائيل – حين تواجدت الأحزاب المختلفة مع أيديولوجياتها المختلفة.

وقد أثر فيّ سامي في الأمور الخلقية الشخصية. فكان مثالاً صالحاً في الإهتمام بالآخرين، ولكنه كان أيضاً يتكلم الى الناس بصراحة ومن دون محاباة عندما كان يرى وجود نوعاً من الأجواء الغير اللائقة أو أية رائحة لعدم الطهارة الجنسية. وقد جعلني موقفه هذا أراجع قيمي فعلاً فيما يخص المجال الجنسي. وهو، بالحقيقة، قد علمني معنى توقير كرامة الآخرين وخصوصاً النساء. فبمجرد وجودي في غرفته تفتحت آفاقي لتتخطى أساسيات الحياة مثل الحصول على وظيفة أو نيل إستحسان الآخرين. فبدأت أنظر الى ما وراء القضايا اليومية التافهة وأسأل نفسي: **"من أجل ماذا أريدُ العيش؟"**

أردت العيش من أجل ما هو حق وصحيح، بغض النظر عن تكلفته. غير أني كنت أشعر بأنني كنت ممزقاً. فكنت أشعر بضعفي الشديد وعجزي عن العيش بحسب المثل العليا التي أضعها لنفسي، إلا أنني، وفي أعماقي، علمت بأنه لا يسعني التخلي عن أشتياقي وظمأي هذا. ربما كان ذلك له علاقة بجذوري، ألا وهي الدعوة للعيش بحسب الرؤية النبوية للحياة الأخوية، والتي أعتقد بأنها مترسخة بقلب كل يهودي.

وفي الوقت نفسه، كان الوضع السياسي في فلسطين يشغلني كثيراً جداً. فكنت لا أزال أحاول التعامل مع ما حدث في عمليات إبادة اليهود Holocaust. فقد أنتهت المحارق وأراد الكثير من الناجين القدوم الى فلسطين لكن البريطانيين منعوهم من الدخول. وكنا نسمع دائماً في الأخبار أنباءاً عن إحتجاز بواخراً من قبل البريطانيين – حيث تم ترجيع آلافاً من الناس. فكانوا يأخذونهم الى قبرص ويُرجِّعون قسماً منهم الى أوروبا. لقد كرهت الألمان، ولكن وبإنتهاء الحرب، توجهت كراهيتي نحو البريطانيين أكثر وأكثر.

ومن الغريب، أنني لم أرَ العرب كأعداء لي بل البريطانيين وحدهم. وكانت هذه المشاعر شائعة بين عامة الناس: فكان الكثير من الناس ينددون بالجنود البريطانيين بالإضافة الى أن العديد من الجماعات السريـّة كانت تقوم بعمليات هجومية ضدهم. وكانت القطعات البريطانية تمر من خلال المدن بالدبابات، ومراكز الشرطة كانت تبدو كالقلاع حيث كانت تحيطها الأسلاك الشائكة.

وفي ذلك الوقت، كنت على قناعة من أن سعادة الناس تكمن فقط في عيش بعضهم مع بعض بوئام. وحلمت بمجتمع مثالي حيث الناس تعيش سوية في سلام. وعلمت بأنه لا مكان للكراهية في عالم كهذا. بيد أنّي لم أقدر نسيان محارق اليهود Holocaust. فكنت أريد تكريس حياتي للقتال من أجل نجاة وبقاء شعبنا. وكنت مستعداً للقتال ضد البريطانيين بأية وسيلة كانت.

وبمساعدة سامي تمكنت من أيجاد بعض الأشغال العرضية في وخارج تل أبيب. فقد كَنَستُ الشوارع وحفرت الحفر ورممت الطرق وإشتغلت في مختلف أعمال صيانة الأبنية. وكانت أعمالاً بدنية شاقة. بعدئذ قابلت جماعة كانت تؤدي الأعمال نفسها في المدينة مستعملة البغال وعربات الجرّ، فلقيت عملاً عندهم. فكنت أكسب حوالي 1.7 جنيهاً استرلينياً في اليوم وقد عملت ستة أيام في الأسبوع، فكان هذا يعتبر إرتقاء درجة بالنسبة لي. وعندما كنت أستلم أجرتي أيام الجمع إعتدت على شراء الكتب. وكنت أقرأ أيضاً الكثير من الجرائد عندما كنت أجلس في القهوة مع أصدقاء العمل في إنتظار إستلام مهمة عمل ثانية. كنت أهتم بكل ما كان يحدث وراء الجدران، ولكن وبصورة عامة كانت الأنباء تثيرني أزيد وأزيد حتى شعرت بضرورة التحرك.

11. القتال من أجل البلد

كانت هناك ثلاثة منظمات سريّة صهيونية في فلسطين آنذاك. أولها كانت الـ هاجانا Haganah والتي أصبحت لاحقاً الجيش الإسرائيلي. ومنظمة الـ إرجون Irgun (Irgun Zvai-Leumi أو المنظمة العسكرية الوطنية) التي كانت أكثر جادة وأصولية وقومية، وترمي الى إقامة دولة يهودية على جانبي نهر الأردن. وقد أعتقل البريطانيين الكثير منهم، وأعدموا قسماً منهم بتهمة تنفيذ أعمالاً إرهابية ضد البريطانيين. وكانت هناك مجموعة أصغر كذلك تدعى لخي Lechi (Lohamei Herut Yisrael أو مقاتلي تحرير إسرائيل). وكان البريطانيين يدعوها بجماعة شتيرن Stern على إسم مؤسسها أفراهام شتيرن Avraham Stern . وكانت هذه الجماعة ترى بأن البريطانيين كانوا الأعداء الرئيسيين لهم، فأخذوا يتعرضون على الأهداف البريطانية أينما سنحت الفرصة لهم، سواءاً أكانت أهدافاً عسكرية أو مدنية.

ولما لم يكن لديّ أية عائلة في إسرائيل فأردت تكريس حياتي للقتال من أجل نجاة وبقاء شعبنا. فأعجبتني جماعة الـ شتيرن ورغبتُ في الإنظمام إليهم، ولكنني لم أعثر على أي وسيلة للإتصال بهم. وتمكنت مرة من الإتصال مع الـ إرجون. فقد تم إصطحابي بصورة سرية تامة الى منطقة فيها إعمار في مكان ما وسُلـِّط عليّ ضوء قوي فكانوا يستطيعون رؤيتي أما أنا فلم أستطع رؤية من كان يستجوبني. فسألوني: " هل تعلم ماهو هدف الـ إرجون Irgun ؟ " أما أنا فبقيت ساكتاً، لأني لم أنجذب بالحقيقة لهذه الفكرة كلها من التطلعات القومية الكبرى. إذ كان تفكيري الرئيسي منصب على ضرورة محاربتنا للإمبريالية البريطانية. فلذلك كنت ساكتاً ولم

أعرف ماذا أجيب. بالإضافة الى أنني لم أكن راغباً في الإنظمام إليهم، لأني كنت أريد الإنظمام الى جماعة شتيرن بالأحرى. ثم قالوا لي: " هل تريد معرفة هدف الـ إرجون Irgun ؟ دولة يهودية على جانبي نهر الأردن. هل تتفق مع هذا؟ " فقلت بأني موافق. وسبب عدم نجاحي في المقابلة كان واضحاً. وربما كنت في سن السابعة عشرة في حينها.

في شهر تشرين الثاني من عام 1947 وصل التصويت على موضوع تقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية في الأمم المتحدة الى حيز التنفيذ. والبلد كلها كانت في ترقب هائل لهذا التصويت. فأتذكر العديد من الناس وقفوا في شوارع تل أبيب يستمعون الى الراديو حين أدلت كل دولة بصوتها. وإستمر التصويت لمدة طويلة حتى انني ذهبت للنوم أخيراً. وقد سكنتُ في منطقة تبعد حوالي ثلاثة كيلومترات عن مركز مدينة تل أبيب. إلا أنني سمعت ضجيجاً فجائياً عالياً في منتصف الليل. فأدركت بأن تصويت الأمم المتحدة إنتهى لصالحنا، فنهضت من فراشي وإستأجرت سيارة أجرة متوجهاً الى تل أبيب. فكانت المدينة في أجلّ إغتباط لها. وكانت الآلاف تجوب الشوارع. وفتحتْ بعض المحلات أبوابها لتقديم المشروبات مجاناً؛ وإصطف الناس يبتهجون. وكانوا يرقصون في كل مكان وسط المدينة.

وبقيت هناك في تل أبيب لما تبقى من الليل. وفي حوالي الساعة السادسة أو السابعة صباحاً سمعنا تقرير عن أولى الضحايا. فقد تم الهجوم على أحد الباصات الذي كان متوجهاً من أورشليم الى تل أبيب حيث العديد من الناس لقوا مصرعهم. لقد وافق معظم الجزء اليهودي من فلسطين على تقسيم البلد، إلا أن معظم العرب لم يوافقوا. فقد شعروا بأنه قد تم الإحتيال عليهم، وطبعاً، فأنهم كانوا يشكلون الغالبية من السكان في إسرائيل في ذلك الوقت. فكانوا يرون بأن البلد كلها كانت لهم ونحن كغرباء سلبنا جزءاً من أرضهم. فمنذ ذلك الوقت بدأ الصراع على نحو جاد. وقد وافق البريطانيون على قرار الأمم المتحدة هذا وإتفقوا على مغادرة البلد في 15 أيار 1948.

وفي تلك الفترة المؤقتة، من تشرين الثاني 1947 ولغاية أيار 1948، أخذت مختلف المنظمات السرية بالتعبئة فعلاً. وفي تلك الأثناء صار القتال الرئيسي بين اليهود والعرب. وكان البريطانيون يعدون العدة للمغادرة ولم يهتموا لما كان يجري من أحداث بل غضوا الطرف عنها.

وكانوا يتدخلون أحياناً لصالح أحدى الجهات. وعلى مرّ عام 1948 كان القتال دائراً في كل أرجاء البلد بين اليهود والعرب لمحاولة السيطرة على مختلف المدن أو مراكز الشرطة التي كانت للبريطانيين سابقاً.

وكنت متحمساً للإنضمام الى الصراع العسكري. فلم نكن نقبل بعد بأن يُذبح الملايين من شعبنا كما حدث في عملية إبادة اليهود. فكنا نريد القتال من أجل دولة إسرائيل وتأسيس وطناً آمناً لشعبنا. وتمكنت من الإلتحاق بجيش الـ هاجانا وقاتلت في مصادمات متعددة ولغاية إعلان وقف إطلاق النار.

في ذلك الوقت نفسه، لم أكن على علم بعودة والدي الى ألمانيا سالماً. فلهذا السبب كنتُ أفضل الموت من أجل قضية كهذه عوضاً عن شخص له أهل أو عائلة، فلذلك كنت أحاول التطوع في الجيش لأية مهمة كانت تبدو خطرة. فبهذا تدربت على زرع الألغام وما شابه. ولم أكن ذا خبرة كبيرة من الأمر بل لكوني كنت في وحدة المتفجرات في سرية " الأسكندروني Alexandroni " – كتيبة رقم 33 من الجيش.

وفي شهر أيار تقريباً من عام 1948 أفلحت أخيرا من إقامة الإتصال مع مجموعة شتيرن. فقد تم إستدعائي الى معسكر قريب ثم تم عصب عينيَّ ومقابلتي. فأخبرتهم عما كان يقلقني عن الإمبريالية البريطانية - بأنها لن تسمح بدولة يهودية حرة ومستقلة. فقبلوني وجئت للقتال جنباً الى جنب معهم. ولكن بعد بضعة أيام من إعلان دولة إسرائيل، طلبوا منا العودة الى وحداتنا العسكرية.

وقد أشتركنا في إشتباكات كثيرة، إلا أن أخطرها كان ذلك الذي وقع في بلدة تدعى كفر سابا Kefar Sava . إذ كان جزءاً من البلدة يهودياً والآخر عربياً ومهمتنا تضمنت في الإنقضاض على الجزء العربي. فذهبت وحدتي لزرع الألغام وحماية الطريق القادمة من مدينة قلقيلية القريبة لكيما نتجنب أي إقتحام لإمدادات عربية. وكانت المقاومة العربية أقوى من المتوقع. ففي غضون دقائق قُتِل وجُرح العديد من رجالنا. وأتذكر لحد الآن كيف كان رفاقي يموتون أمام عينيّ. وأمرنا آمرنا بالإنصراف عن التل وإعادة تنظيمنا في بستان مجاور. وحاول قسم منا مِمنْ لم يصاب إسعاف الجرحى. ونجحنا وتحت النيران الكثيفة من نقل قسماً من رفاقنا المصابين الى مكان آمن نسبياً. غير أننا تم تطويقنا هناك من قبل العرب وإنعزلنا عن فوجنا العسكري.

فقرر آمرنا أخذ جماعة صغيرة معه والرجوع الى كفر سابا لطلب التعزيزات. فذهبت معهم لإرشادهم عن الطريق الصحيح الذي تخللته الألغام التي زرعتها بنفسي. وفي أثناء رجوعنا هجم العرب؛ فقتلوا الجنود الجرحى ومَثّلوا بهم (أي شوهوا أجسادهم). وألقيتُ باللوم على نفسي لتركي أياهم هناك لوحدهم، وإن لم يكن هناك أي شيء يمكن القيام به لإنقاذهم. فأصابتنا الصدمة جميعاً بهذه التجربة، وإشتعل سخط الكثيرين وإنتظروا فرصة تسنح لهم بالإنتقام.

بعد أيام أو أسابيع لاحقة رأيتنا في إشتباك لمحاولة أخذ قرية الطنطورة Tantura. وكانت هذه تقع حوالي ثلاثين كيلومتراً جنوب حيفا، بالقرب من البحر. وبعد عدد من المعارك الضارية، تمكنّا من السيطرة على المدينة. وشاع بأن بعض الرجال من القرية قد قُتلوا إنتقاماً للمذبحة التي حصلت في كفر سابا. أنا شخصياً لم أرَ قط أية أحداث قتل ولكن الشائعات أثرت حتى عليّ. فكنت مصمماً للقتال من أجل حقنا للعيش في هذا البلد. وكنت مستعداً جداً للقتال حتى ضد جيوش مصر والأردن وبلدان أخرى. فكنت على أهبة الإستعداد لبذل حياتي لضمان حق وجود دولة إسرائيل. إلا أنني كنت أرتعب من التفكير من أن الحقد الوحشي والتعطش للإنتقام الدموي بإمكانه أن يستولي على قلوب الناس بسهولة.

طبعاً، لم يكن هناك وقتاً كافياً للتفكير بعمقٍ في أمور كهذه. ففي ذلك الوقت، لم أفكر بشيء إلا بكيفية تقديم المزيد من العطاء. وكان هناك شاباً في وحدتي يدعى شموئيل جَتَر Schmuel Getter. وكان ينتمي الى مجموعة من الشباب مِمنْ كانوا يستعدون لتأسيس كيبوتساً، فأراد الإنظمام الى بقية تلك المجموعة والتي كانت كلها جزءاً من الـ بالماخ Palmach وهي بدورها كانت تعتبر أفضل نخبة عسكرية في الجيش. فمن ناحيتي، كنت أأمل رؤية أعمالاً وتحركات أكبر مع الـ بالماخ. فتركنا وحدتنا العسكرية معاً ووجدنا الوحدة الأخرى التي كان أصدقائه يخدمون فيها. ولم أرد أن أقل لهم بأن إسمي كان يوسف ناخت لئلا يكتشفوا حقيقة إنتمائي الى وحدة عسكرية مختلفة. لذا قلت لهم بأن إسمي كان يوسف بن ايليزر. وبن ايليزر يعني إبن ايليزر والذي كان هو الصحيح. وفعلتها إرتجالاً في حينها من أجل تلك اللحظة، إلا أن إسمي بقي بن ايليزر منذ ذلك الحين.

وعندما كنت ضمن قوات الـ بالماخ كنت أصاحبُ غالباً شموئيل وأصدقائه. وكان لأولئك الشباب والشابات كل شيء مشترك فيما بينهم. وبالرغم من أنهم كانوا في الجيش إلا أنهم عاشوا كجماعة متظافرة فيما بينهم داخل الجيش. فكانت النساء تزودهم بجميع أنواع الملابس؛ فكان بإمكانك أن تأخذ ما إحتجته من ملابس، وتعيدها لهم لتُغسل.

وكان لوحدتنا العسكرية دوراً بارزاً في الإستيلاء على اللد Lod قرب تل أبيب. وهنا أيضاً، خاب أملي بالطبيعة البشرية وإرتجّ من جراء هزة شديدة. فبعد أن تم قهر المدينة كانت هناك بعض المناوشات في الشوارع، ولكن وفي نهاية الأمر، تم أصدار الأوامر لكامل سكانها العرب بالرحيل. فلا أزال أتذكر بوضوح تلك الصفوف الطويلة من اللاجئين – رجالاً ونساءاً وأطفالاً وهم يفرّون نحو مستقبل مجهول. وصارت وحدتي العسكرية في أحدى المرات تفتش بيوت أولئك الذين فروا من المدينة بحثاً عن أسلحة وعن ماهو نفيس. وكانت الأجواء مشدودة؛ وقد أساء واحد من رفاقي تعامله مع العرب وبشكل حقود. وفي تلك اللحظة فإذا بفكري يومض ويعيد إليّ تجاربي السابقة وأنا صبي بعمر عشر سنوات حينما فـَرّيتُ من بيتي في بولندة. أما هنا فالأدوار قد إنعكست. فقد ضرب أحد رفاقي فلسطينياً بحربته وقد أنصقعتُ حين تذكرتُ والدي يُضرب بالطريقة نفسها من قِبَل ِ جندي ألماني. فهزتني من الأعماق: " فكيف يمكن للبشر معاملة الآخرين بمثل هذه الطريقة ؟ "

لقد رأيت إثنين من جنودنا – وهما بالحقيقة صبيان – أخذا بعضاً من العرب وأمراهم بحفر قبر، ثم أمراهم بالنزول إليه وبدءا بتصويب بنادقهما إليهم، فصرخ العديد منّا عليهما، فمن بعد ذلك تركاهم يذهبون، ولكنني صُدِمتُ من أننا، وحسب ما يبدو، قادرين على فعل الشيء ذاته الذي نسمعه عن بقية الأمم. فبقيت في دوامة من الإضطراب. فالذي كنت أبغيه هو مجرد القتال من أجل دولة إسرائيل، ومجرد القتال من أجل بقاءنا ونجاتنا، وليس على حساب أذية الناس بشكل خبيث. وهذان الشابان لم يكن لهما أن يفعلا شيئاً من هذا القبيل أبداً في ظروف طبيعية، ولكننا كنّا في وضع حيث قد طُرحتْ القيم الأخلاقية في مهب الريح.

وفي أثناء ذلك الحين، حاولت مساعدة واحد من العرب الذي أُجبِر على حفر الخنادق لنا. وربما كان يعرف شيئاً من العبرية لأنني أتذكره يخبرني بأنه كان حلاقاً. فقلت له بأنه يمكنه الذهاب الى بيته ولكنه كان قد أضاع أسرته بين الحشود المتدفقة الى خارج المدينة. وهنا تذكرت مرة ثانية كيف كان على أسرتي الفرار من روزفادوف فأحسست بشيء من الإلتزام لمساعدته. فإصطحبته ماشياً خلال شوارع مدينة اللد الضيقة ومتنكباً بندقيتي الرشاشة شتين Sten. فكان من الجنون حقاً الخروج وحيداً بهذا الشكل؛ فبهذا كنت قد عرضتُ نفسي للقتل وبسهولة. على كل حال، مررنا في وسط المدينة ووجدنا أسرته أخيراً مع كل أمتعتهم محملة على عربة حصان. ورافقتهم ليصلوا الى طرف المدينة بأمان، غير أنني لم أعلم ماذا حلّ بهم بعد ذلك. فلذلك كانت هناك الكثير من المعاناة وحتى الوحشية، ولكن كانت هناك بعض من اللحظات التي فاز فيها الإحسان.

وقد مرضت كثيراً بعد العملية العسكرية في اللد بوقت قصير. في البداية، لم أعرف ماذا حلّ بي، غير أن الطبابة أدركت أخيراً من إصابتي بمرض الملاريا. وفي ذلك الوقت، نفدت قواي كثيراً ولم أطق عمل شيئاً. وبعد مضي بضعة أسابيع في المستشفى في قسم علاج الكينين تمكنت من إعادة الإنظمام إلى رفاقي، لكن الأمور بدأت تتغير. فقد تم إعلان وقف إطلاق نار ولم يتبقى أي قتال فعال بعد – على الأقل في ذلك الوقت. كما تغيرت الأجواء في وحدتي العسكرية كذلك. فكان لنا دائماً إحساس قويّ بالزمالة؛ حيث كان كل من الضباط والرجال المجندين معاً وعلى حد سواء. لكن الجيش الإسرائيلي بدأ في ذلك الحين في الإندماج وأخذ يشدد على النظام العسكري التقليدي. فاصبح التدريب متشدداً وميكانيكياً. على كل حال، لم أشعر بعدئذ بأنني قريب جداً مع رفاقي في وحدتي العسكرية في الـ بالماخ، فلذلك عُدّتُ الى وحدتي في لواء الإسكندروني. وبطبيعة الحال، فقد عُوقبتُ لتركي إياهم، لكن الضباط تساهلوا معي لأني كنت أتوخى مجرد وراء معارك أقوى. وتوسلتُ لإعادتي الى وحدتي السابقة – وحدة المتفجرات، والتي كانت تحشد صفوفها في الوقت نفسه لغرض القيام ببعض العمليات في صحراء النقب. وكان ذلك في حوالي أواخر عام 1948 وكانت، وحسبما أظن، آخر معركة ضارية للحرب.

وظلّت قريتين في صحراء النقب تحت سيطرة وحدات عسكرية مصرية بقيادة جمال عبد الناصر الذي صار رئيساً لجمهورية مصر لاحقاً. وكان لدى وحدتي العسكرية أسلحة جديدة غير مجربة، ألا وهي قاذفات اللهب. وكان لدينا العديد منها، ولكنها كانت خطِرة بسبب عدم وجود أي أحد منّا من عرف فعلاً كيفية إستعمالها. وقد تم تسليم أحدها الى أحد الفتيان في وحدتي العسكرية والذي كان إسمه ديفيد. وبدا عليه الإرتعاب بصورة جليّة، وقد علمت بأنه كان وحيداً لأهله، فتطوعت لإستلامها بدلاً عنه فوافق آمرنا. ولفجعته، فقد قـُتِل ديفيد في أول هجوم ضد قرية عراق المنشية. وفي تلك الأثناء كنت أحمل هذا السلاح العديم الفائدة والثقيل – قاذف اللهب - طوال الليل وتحت المطر الغزير.

وأحياناً كنت أشعر بالذنب: فربما ظلّ ديفيد على قيد الحياة لو لم أبدل مكاني معه. ومن ناحية أخرى، فأنا ممنون للغاية على أعجوبة بقائي على قيد الحياة لحد الآن بعد أن وضعت نفسي متعمداً في الخطر مرات عديدة. ولكوني كنت في وحدة المتفجرات فلم أقتل قط أي شخص عن قرب، إلا أنني كنت أعاني حينما أتذكر رفاقي يموتون في المعركة. وكذلك وفي نفس ذلك الوقت كانت تخيم عليّ مشاعر الكدر والشعور بالذنب لوفاة أمي ولمصير أبي المجهول. فلم أقدر على التغلب على ذاك الإضطراب الداخلي ولم تجعل الملاريا من الأمور سوى الأسوأ.

وبالحقيقة، فقد تَرَكتْ أختي وبقية أفراد العائلة كل شيء ليمدوني بالدعم مرة أخرى في ذلك الوقت العسير جداً. وقد ذهبتُ الى الطبيب النفساني في الجيش عدة مرات وتركت الجيش في كانون الثاني من عام 1949. وطبعاً، فقد إنتهت أغلب المعارك في ذلك الوقت، وكانت إسرائيل تتفاوض مع الدول العربية حول الهدنة.

وسرعان ما أخذتُ أفكر بعدئذ وعلى الفور بكل ما فعلناه. فقد جئنا الى إسرائيل وما أردناه كان سوى العيش مثل الآخرين – فلماذا لم نحضَ بهذا الحق؟ ... ولأننا كنّا نريد أن نحيا، فكان ذلك يعني إجتثاث غيرنا من الناس بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وجعلهم يعيشوا في مآسي. وبدأت أفهم الأمور أكثر وأكثر وخرجت بنتيجة بأنني لم أعد أطيق الإساءة للآخرين مرة ثانية وعلى الإطلاق مهما سَمَتْ القضية.

ليو، الوالد، يوسف

12. إجتماع الشملْ

بعد مغادرتي للجيش تمكنت من الإتصال بوالدي بصورة غير متوقعة. إذ كان قد نجح في الوصول الى فرانكفورت من سمرقند قبل ذلك الحين. فقد ذهب مع أخي وأختي الأكبر مارّين بـ بولندة بعد إنتهاء الحرب فيها وبـ النمسا وتمكنوا من الوصول الى ألمانيا. وفي غضون تلك الأثناء كان كل من أخي وأختي قد تزوجا. وكان لأختي بـنـتـاً. فقد ذهبوا كلهم الى ألمانيا للمطالبة بإسترداد ممتلكاتهم هناك. وتمكنوا كذلك من الحصول على تعويض مالي.

وقد دعاني أبي للمجيء الى ألمانيا. وكان الوصول الى ألمانيا سهلاً في تلك الأيام – وحتى الى أوروبا – ولم يعلم أحداً بموعد وصولي. وقد تمكنت من الطيران الى باريس، ومن ثم وبطائرة صغيرة ذات 15 – 20 راكب الى بلجيكا، ومنها تابعت السفر الى فرانكفورت. وكان هذا هو الطريق الوحيد الى فرانكفورت إذ لم يكن بمقدورك الذهاب من خلال باريس. وقد تعجبتُ، بعد سنين عديدة، من مساحة مطار فرانكفورت الجسيمة؛ لأن مبنى المطار كان مجرد

كوخاً صغيراً آنذاك. وعندما تركت إسرائيل لم أقدر أن آخذ معي أكثر من 10 جنيهات إسترلينية حتى أني أنفقت أغلبها في الطريق. فكنت وبكل بساطة أسأل الناس عن إرشادات الطريق، ومتنكباً حقيبة الظهر وماشياً أبحث عن بيت أبي.

ووجدت أخيراً العنوان: Sandweg 46 وكان أبي يمشي أمام الدار هناك. وهو بالكاد كان قد تغير، إلا أن إبنه، من زمان سمرقند، الشاحب الوجه والهزيل قد توارى تماماً. فتوقف وأخذ ينظر إليّ متسائلاً من عساه أن يكون ذاك الشاب ذو الـ 21 عاماً ممن يتسكع أمام داره. فدنوت منه وقلت له: " أبي! " فإحتضنني، ثم إندفع كل من أخي وأختي من داخل الدار لينضموا إلى إجتماع الشمل ذاك، الذي ملئته الدموع، بعد 7 سنوات من الإنفصال المؤلم.

عندما كنت صبياً لم تكن علاقتي مع أبي جيدة. فكان لدينا في أكثر الأحيان خلافات حين كان يسعى عبثاً ترويض طبيعتي الثائرة. وفي لحظة وغمضة عين تطايرت كل هذه الأمور ولم يكن هناك حاجة للحديث عنها بعد. وكان مستعداً لعمل أي شيء لمساعدتي. وأتذكر كيف أخرج، وبكل إفتخار، ساعة ذهبية ثمينة قد أعدّها خصيصاً لي كهدية لترحيبي. وبمجرد أن رأيت أبي وأخي وأختي على قيد الحياة ساعدني ذلك على التغلب على مشاعر الذنب لديّ جراء تركي لهم في سمرقند.

وفي خضم وضع ما بعد الحرب فقد تمكن والدي من إقامة تجارة مربحة في السكائر وغيرها من السلع النادرة. وأرادني أن أشاركه في العمل، لكنني ومع مثالياتي، رأيت بأنني يجب أن آكل خبزي من خلال عملي وليس من خلال محاولة ربح الأموال بالمتاجرة. وأردت تعلم إحدى الحرف فوجدت شغلاً كبنّاء قرميد. واستمريت في هذا العمل مدة ستة أشهر الى أن لويتُ كاحلي بشكل غبي مما إضطرني الى التوقف عن العمل.

ولمجرد وجودي في ألمانيا كان زمناً مهماً بالنسبة لي. إذ لم ألتقِ بأي ألماني منذ طفولتي وكانت لدي فكرة سيئة عنهم على أنهم كانوا مهووسيين مرضياً أو حيوانات. وإلا فكيف لهم أن يرتكبوا فظائع مذابح اليهود؟... لكن العيش والعمل مع الألمان بدأ يليّن ويخفف هذه النظرة. فكان أستاذ بناء القرميد الذي إشتغلتُ عنده شخصاً لطيفاً، وإنساناً عادياً تماماً. والتفكير بأنه كان يمكن أن يكون نازياً أو حتى في الـ SS (أي القوات الخاصة في الجيش النازي) هزني. ومما لاشك فيه من أن أشخاصاً مثل هتلر وهيملر قد كرسوا حياتهم متعمدين لخدمة الشر، ولكن ما الذي جعل الكثيرين من الألمان يقبلوا هذا الشر وحتى الى درجة دعمه؟... كان عليّ أن أتذكر ذانِك الصبيين من مدينة اللد. فما هي ياترى تلك القوة التي تطلق العنان لوحشية كهذه في قلب

الإنسان؟ ... لأنه في تلك الحالات التي ينعدم فيها التقيد الخلقي، نرى الناس يتحولون فيها الى ما أشبه بالمهووسين المرضى.

وفي الوقت نفسه، كنت أعلم بضرورة عدم نسياني لما حدث في مذابح اليهود. فقد مات إثنين من أولاد عمي في أحد معسكرات الإعتقال؛ وقد ماتت أمي ولقى العديد من الناس الآخرين حتفهم بسبب الجوع والمرض في روسيا. وقد إشتريتُ كتاباً يحتوي على صوراً من مشاهد مختلفة عن مذابح اليهود. وكنت أتصفحه بإستمرار مجرد لأتذكر. والآن فقد إنحفرت هذه الصور بذاكرتي.

وبعد خمسين عاماً، فلا تزال الأوجاع تكتنفني من جرائها أحياناً. لقد حظيت بفرص عديدة لزيارة متحف مذابح اليهود في واشنطن، إلا أنني لم أقدر على الذهاب. وقبل عدة سنوات قمت بزيارة متحف دياسبوره Diaspora Museum في إسرائيل، ولكنني لم أطِقْ البقاء هناك طويلاً؛ لأن الصور كانت أكبر من طاقتي في التحمل. فالصور التي في ذهني هي أيضاً شيئاً أكثر مما أتحمله أحياناً. أنا لا أرتعد لحال أولئك الذين تألموا فقط بل أيضاً لحال أولئك الذين فعلوا تلك الأعمال الرهيبة. وأرتعد لوجود قوة مقتدرة تعمل في العالم والتي تجعل الناس يفعلون أشياءً رهيبة كهذه.

13. ويستمر البحث

لقد كنت في ألمانيا مدة عام من الزمن، من آب 1949 ولغاية 1950. وقد قضيت كل ذلك الوقت مع أبي وأخي المتزوج وأحتي المتزوجة، ولكن، وبعد الحادثة التي أصابتني في كاحلي، صرت غير متأكداً عما سأفعله، فلم أتأقلم في ألمانيا بالحقيقة، فلذلك قررت العودة الى إسرائيل. وكنت بأية حال، مقتنعاً بالصهيونية، ولكنني شعرت في أسرائيل وكأنني في بيتي ووطني. فأولاً كنت أعرف اللغة، وثانياً كنت أحس أيضاً بأنني مع الشعب اليهودي بأسره، كان لدينا على الأقل هدفاً ومصيراً نسعى لتحقيقه. أما الله فلم يكن لدي أيماناً به، لكنني أردت العيش من أجل شيء أكبر مني.

عندما رجعت الى أسرائيل، بدأت أسأل نفسي: " لماذا أحاول دائماً أن أكون مختلفاً عن أي شخص آخر؟" فقلت في نفسي بأنني يجب أن أحاول مجرد الإنخراط والتكيّف مع المجتمع العادي مثل الآخرين. فقمت بزيارة صديقي القديم يعقوب فنكلشتاين والذي كان "رجل العالم" أكثر مني. فقررنا المباشرة بمصلحة معاً. وكان عندي شيئاً من المال من أبي، أما هو فكان يعرف كيفية تسيير المصلحة. فإشترينا عدداً من مكائن صنع البوضة، وأعدينا محلاً تجارياً لها. ولكوني كنت في الجيش فكان بمقدوري الحصول على التصاريح المطلوبة للحصص التموينية.

وحققت مصلحتنا نجاحاً لا بأس به، ولكنني، وبعد مضي سنة، طفح بي الكيل ولم اطق الإستمرار بعد. فلم تكن هذه هي الهدف الحياتي الذي كنت أرمي إليه. فأنهينا شراكتنا وإفترقنا كأصدقاء. فكانت شخصياتنا مختلفة تماماً؛ إذ كان يعقوب راغباً جداً للإندماج في المجتمع

ليكسب أكبر قدر ممكن منه، أما أنـا فلم أقدر أن أقتـنـع أساساً باسلوب الكَدّ لمجرد المشي يوماً– فيوم خلال الحياة.

وكانت الكتب والمسرحيات والأفلام التي أثّرت فيّ بعمق تعكس كل صراعاتي الداخلية في ذلك الوقت. فعندما يفقد ليني Lennie السيطرة على ذاته ويقتل صديقه في رواية "من الفئران والرجال Of Mice and Men " للكاتب شتاين بك Steinbeck فهو يبدو لي وكأنه يصرخ من أجل معاناة الجنس البشري بأسره. فالسؤال هو: ما الذي يمنع الناس عن العيش بإنسجام ووئام معاً؟... وكان لنفس الموضوع صدى لدي من خلال قرائتي لرواية الكاتب والفيلسوف سارتر Sartre والتي هي بعنوان "لا مهرباً" " No Exit " حين تم إجبار ثلاثة أشخاص على العيش معاً وتمكن كل منهم من جعل حياة الآخرين مزرية. وفي نهاية المسرحية يعلق أحد الشخوص قائلاً: " الجحيم هو الآخرين ". إلا أنني لم أرَ قط القضية الملتهبة في صدري في ذلك الوقت قد تم التعبير عنها بشكل مؤثر سوى في رواية " الأبله The Idiot " للكاتب دوستويفسكي، حين يطلق الأمير مايشكين Myshkin صرخة من قلبه الممزق: " لماذا لا يقدر الناس على العيش معاً ؟... لماذا لا يقدر أن يستمع أحدهم للآخر ؟ "

فصرت أفـتـش أكثر وأكثر بين المثل العليا وبين المثاليين. أما الحركة الصهيونية الإجتماعية فلم تجذبني. فقد رأيت بأن الأجواء قد تغيرت بالمقارنة مع حركة الكيبوتس الأولية حين كان على الصهيونيين الشباب التغلب على جميع أنواع المخاطر والعقبات ليقتصدوا في المعيشة. ففي المدة التي قضيتها في الـ بالماخ رأيت جميع أولئك الشباب يجمعون غنائم الحرب لكيبوتسهم الجديد. وكانوا يتحدثون عن الإشتراكية والأخاء بين الناس غير ان الأمر بدا لي وكأنه نَـهْـب. فبعد أن رأيت كل ذلك أبعدتُ عني فكرة الإنضمام الى الكيبوتس بل حتى لم أتوخاها.

بدأت أقرأ الكثير من الكتابات الماركيسية وتحدثت كثيراً مع سامي. وأقنعني أكثر وأكثر بأن الفلسطينيين سوف يكرهوننا دائماً كرد فعل على المشروع الصهيوني. فمن ناحية، فهو قد قوّى ظنوني من أن جهودنا الرامية لتأسيس وطناً لـنـا سـيـتـم إنجـازها فـقـط من خلال تـمزيـق حـيـاة الآخرين. ولكن، وفي الوقت نفسه، كنت أحاول غالباً التجادل لبرهنة من أنني كنت لا أزال قادراً على العيش في إسرائيل والعمل من أجل المصالحة في آن واحد، وعدم الإشتراك في العنف كذلك. إلا أنه كان يرد عليّ متجادلاً بأن ما قد أغضب الفلسطينيين هو النظام القائم، الذي هو بالتحديد تواجد دولة إسرائيل التي أزاحتهم وليست أعمالنا الصالحة أو الطالحة.

وبدأت أشعر شيئاً فشيئاً من أن المشكلة هي ليست مشكلة على الصعيد القـُطري فحسب بل إنها تخص، بالحقيقة، مصير الإنسانية بأكملها. وبدأت آخذ بنظر الإعتبار تأريخ الأمة اليهودية على مر القرون. فمن جهة، كانت إسرائيل أمة مثل غيرها من الأمم الأخرى، ومؤلفة من بشر مثل غيرهم من البشر. وفي أكثر من مرة، سعى الناس لتوطيد كيانهم بالقوة والجبروت. غير أن الشعب اليهودي كان دائماً على علم بثمة مهمة أخرى له، ألا وهي أن يعيشوا مثالاً صالحاً من البرّ والعدل بين الشعوب. وكانت هناك، بإستمرار، أصواتاً نبوية تدعو الناس للعودة الى هذه المهمة المتميزة. وكنتُ لا أزال حينها مـقـتـنـعاً بالإلحاد، إلا أن شيئاً ما من ذاك القبيل بدأ يعمل في داخلي.

وطبعاً، كان عمي حايم سيمحا شاهداً على كل ما كنت أخوضه من صراعات. وبينما إزداد إحساسي أكثر وأكثر بضرورة مغادرة إسرائيل للبحث عن جواباً أعمق لمعاناة البشرية حاول عمي إقناعي بالعدول عن السفر. قال لي بأن معاناة الناس هي نفسها أينما ذهبنا؛ ولا أحتاج الى السفر بعيداً لأنشد ضالتي. غير أنني كنت غير مرتاح البال وشعرت بضرورة مغادرتي لإسرائيل للعثور على الوضوح. أخيراً، قال لي وهو حزين الى حد ما: " هاهنا شخص آخر في عائـلـتـنـا مِمنْ يبحث عن المسيا (أي المسيح)." وربما كان يشير بذلك الى مثاليات أيام شبابه أو ربما الى إبن عمي " لايـبـِش Leibich ". ففي العشرينيات ذهب لايـبش الى فلسطين، وقد طـُرد من البلد لإعتناقه الشيوعية. فرجع الى بولندة، ولكنه ذهب في نهاية المطاف للقتال في حرب إسبانيا الأهلية ولم يَعُدْ أبداً. فربما كانت توجد هناك خاصية وراثية وراء كل الباحثين والحالمين في عائلتنا؛ أو لعلها هي في طبيعة الشعب اليهودي. فلا أعتقد بأنها مجرد من قبيل المصادفة أن يكرس الكثير من اليهود أنفسهم لمختلف حركات التحرر والعدالة في أرجاء العالم كله.

على أية حال بدأت أتهيأ لمغادرة إسرائيل. وأردت الذهاب الى باريس. فكانت باريس في مرحلة ما بعد الحرب ملتقى للكثير من لهم خلفيات قومية مختـلفة وذوي الأيدلوجيات المتـنوعة. وكنتُ أأمل الحصول على عمل ككاتب طابعة للمطابع Lino-typist في اللغة اليـيدية، فقضيت ستة أشهر أتدرب على هذه الحرفة. وعملت ليلاً ونهاراً لتعلم اللغة الفرنسية. أخيراً، تركت إسرائيل الى باريس في أيار من عام 1953.

14. جماعة باريس

كـان الإتـصال الوحـيد لي في باريس هو مع إبنة خـالي " بيرته Berta " والتي إنتقلت الى هناك من إسرائيل بعامٍ واحدٍ قبلي. وعن طريقها تعرفتُ على " يعقوب هالبرين Halperin Jakob "، والتي تزوجتْه هي لاحـقـاً. وكان يعقوب متكلـماً موهوباً، وكان يترأس جماعة ملتزمة من اللينـينـيين في باريس (اللينـينـية هي مذهب لينـين في الشيوعية). وعندما أعود بذاكرتي الى الماضي، فأستطيع أن أرى بأن بيرته وبعض من أصدقائها في تل أبيب قد راقبونني سابقاً على أمل زجّي في جماعتهم اللينـينـية. فقد تكلمنا سوية قبل سفرها حول الأمور التي تشغلني وحول فكرة مغادرتي لإسرائيل. غير أنني لم أعلم في وقتها بضلوعها بأشياء كهذه. فكنت أفترض بأنها كانت ودودة معي مجرد لأنها إبنة عمي وأيضاً بسبب تقاسمنا لبعض الأفكار المماثـلة. وعند وصولي الى باريس كنت منفتحاً أكثر على مثالياتهم الشيوعية.

كان ليعقوب القدرة على التغلب على أي شخص تقريباً. فكان يجيد كل من اللغة الروسية والبولندية والعربية والعبرية والألمانية وغيرها من اللغات وبصورة جيدة. وكان واسع الإطلاع الى درجة كبيرة ولديه معرفة عميقة عن الأدب التقليدي الرفيع. وكان لينين مثاله النموذجي. وقد إنتقد تروتسكي Trotsky وستالين Stalin وغيرهما من القادة الشيوعيين بسبب خيانتهم لرؤية لينين. وكان مقـتـنعـاً جداً بالمثاليات وكرس حياته كلها من أجل الثورة الشيوعية. وفي الحقيقة، كان هو على إستعداد لإستخدام أية وسيلة كانت لتحقيق هدفه في إنشاء مجتمعاً عادلاً.

وإنخرطت في تلك الجماعة المتـناقضة مدة ثلاثة أشهر. وقد تزاملنا كثيراً، وأكلنا معاً وتقاسمنا تقريباً كل شيء. إلا أن الحلقة كانت مراقبة نوعاً ما. كنا نجتمع في مجاميع للنقاش

بصورة سريّة، ولم يَبُحْ بعضنا إسمه أو خلفيته لبعض. وكانوا يصدرون منشورات لتعزيز مسألة " الشيوعية الحقيقية "، ولكنها كانت ضد ستالين أكثر من كونها ضد الرأسماليين. وقالوا: "نعم، نحن جماعة صغيرة، ففي روسيا كانوا أيضاً مجرد قلة من الناس إلا أن تلك الحركة نمتْ. وعلينا أن نكون في طليعة الجماهير ومن ثم سيتبعوننا."

بعد ثلاثة أشهر إنتقلتُ من هناك لأعيش مع أخي وأختي في فرانكفورت. كان بـوديْ المكوث أكثر مع الجماعة في باريس ألا أنني لم أقدر الحصول على إذنٍ بالبقاء في فرنسا. وفي غضون تلك الفترة تمكنتْ أختي جْودِت من القدوم من إسرائيل في أول زيـارة لها، فـإلـتـقـيـنـا أخيراً نحن الإخوة الأربعة مرة ثانية بعد كل تلك السلسلة من رحلات السفر الطويلة والمـُشـتـِّتـة في أوروبا وآسيا. وربما أمضيت ستة أشهر في ألمانيا، إلا أنني لم أعثر على عمل هناك وكنت لا أزال أتشوق للعودة الى رفاقي في باريس.

في بداية عام 1954 ساعدني أصدقائي في التسلل والعودة الى فرنسا. فقد عبرت أولاً الحدود الى بلجيكا بطرق ملتوية ومن ثم الى فرنسا. وكل شيء مضى على مايرام، إلا أن مايثير السخربة هو أن مشاكلي بداءت بعد وصولي باريس. فلم يكن هناك أحداً في المحطة ليقابلني على النحو المخطط له، ولم يكن لي أي مكان أبات الليل فيه. ولم أردْ أن أثير التساءلات والشكوك بتسكعي في المحطة، فأخذت أتمشى نحو منطقة في باريس تكثر فيها الحياة الليلية. وبحلول ذلك الوقت أصبح الوقت متأخراً جداً، فإستقريت على مصطبة في إنتظار الصباح.

بعد قليل جاءني رجل وباشر الحديث معي. وكان هذا الرجل أجـنـبـيـاً أيضاً وروى لي كيف قد أسيئت معاملته. وزاد تعاطفي معه الى درجة الغباء المطلق. فأخبرته بأني كنت متواجداً هناك بصورة غير شرعية. وسألني: " ألديك ما يكفيك من المال لتدبير حالك أثـناء سفرك؟ " فأكدت له ذلك، حتى أنني أريته محفظة نقودي. بعد ذلك بوقت قصير، تمنى لي الموفقية ومضى في طريقه. بعدئذ ذهبتُ لشراء قدحاً من القهوة فوجدت بأن جميع نقودي قد سُرقت.

وقد نجوت، برغم ذلك، ووجدت يعقوب وبيرته في اليوم الذي تلا واللذان بدورهما ساعداني على إيجاد مكـانـاً للسكن. وكان علينا تسجيل عنواننا لدى السلطات في فرنسا والذي كان مشكلة لي. فأخذت أتـنـقـل من مكان الى مكان، ولكن أخيراً ساعدني أحد أعضاء جماعـتـنـا في إيجاد سكناً شبه دائمي. فكان هو طالباً وسكن في منزلاً فيه إمرأة ناطورة تجلس قرب الباب تشاهد الجميع في الذهاب والإياب. وقال لها بأنه مسافراً الى كورسيكا Corsica لفترة معينة ويريدني السكن في غرفته. وكنت أدخل وأخرج يومياً ولا أجرؤ قول شيء أكثر من *" صباح الخير*

ياسيدتي! "، لكي لا تحس بأني طالباً غير فرنسياً إعتيادياً. وكانت الصعوبة الوحيدة الحقيقة عند دفع الإيجار. فكان علي مراجعة سطوري بعناية لتلك اللحظة.

لقد درسنا عن ماركس ولينين في جماعتنا. وتناقشنا كثيراً وذهبنا حتى الى أماكن للنقاهة والتأمل معاً. فكان شوقي هو لذلك المجتمع الذي يعيش فيه الناس معاً في إنسجام وبدون ظلم ولا فقر. فلذلك كانت تبدو بعض من نظرياتهم الماركيسية بأنها تعطي أملاً لإيجاد حلاً: مثل فكرة تقرير سلوكيات الناس من قبل المجتمع. ومن الواضح بأن من ينشأ في أحياء الفقراء تكون سلوكه مختلفة عن الذي ينشأ في بيئات مختلفة. فنخرج بنتيجة واضحة من أننا إذا غيّرنا الظروف المعيشية لحياة الناس سيتصرفون بصورة مختلفة. أما النظام الرأسمالي فهو يشجع الأنانية بسبب طبيعة اسلوب الحياة حيث كل فرد يعمل من أجل نفسه فقط. في حين يشجع النظام الإشتراكي المشاركة وتظافر المجتمع.

ولكن كان لي أيضاً مجموعة من التساءلات التي لم أجد لها رداً مرضياً في تلك الجماعة. فلم أرد رؤية تطورات الأوضاع وتدهورها في روسيا تكرر نفسها مرة ثانية. فكيف لي أن أضمن بأن الثورة المستقبلية لا تؤدي الى نفس الإستبداد والظلم الذي رأيته في الإتحاد السوفييتي؟

وحتى في الثورة الفرنسية، كان الصراخ ينادي بـ " التآخي والحرية والمساواة "، إلا أن أولئك الذين إستولوا على السلطة إستمروا في إقتراف فظائعاً شنيعة. فكانت الأفكار جيدة، ولكن: هل ياترى بمقدور الثورة التي تستخدم العنف تحقيق تلك الأفكار حقاً ؟

لم أكن سعيداً أيضاً في تلك الجماعة حين كانوا يرون الكراهية من الضروريات. فأنا أعلم بأن الثوار عليهم الوقوف مع الجماهير وأن يكونوا مستعدين للكفاح من أجلهم، ولكن هذا ليس نفس الشيء ككره الناس، بالنسبة لي. فقد ناقشت هذا الأمر مع بيرته عدة مرات، ولكنها كانت دائماً تسألني: " وماذا عن هتلر ياترى؟ " وبيرته كانت قد جاءت توها من ألمانيا حيث تمكنت من الفرار من النازيين حين كانت في عمر الـ 16 وكانت تكنّ غاية الكراهية ضد هتلر وحكومته. فالإجابة الوحيدة التي كنت أجيبها بها بأنني كنت مستعداً لقتل الطغاة ومستعداً للقتال من أجل الثورة، غير أن كراهية أي فرد هي أمر خاطيء – حتى لهتلر. فالكراهية هي تدنّ لكرامة الإنسان؛ وتحط من قدر الإنسان الى مستوى الحيوان. إلا أنها كانت تجيب: " أنت بالضبط كالمسيحي يا يوسف، الطبقة البرجوازية *Petit bourgeois* ".

بعد حوالي ثلاثة أشهر شعرت بأنني يجب أن أمضي قدماً. لم أقطع علاقتي مع الجماعة، إلا أنني لم أجد بَعْدْ الشيء الذي كنت أبحث عنه. فذهبت الى ألمانيا. وأراد كل من أخي وأختي أن أشاركهما في مصلحتهما ولكنني لم أكن مهتماً بالموضوع. ووجدت عملاً في مجال البناء في فرانكفورت – عملاً بدنياً شاقاً من التحميل والحفر. فكانت فترة عصيبة. فلم أجد من يتفهم شوقي. والتوترات التي لم أجد لها حلاً كانت أكثر مما أحتمله. وكنت أراجع المحللين النفسانيين بين الحين والآخر، وأحياناً كنت ألتفت الى المشروبات الكحولية. فكانت تلك الفترة فترة مظلمة بالنسبة لي.

وجاءني يعقوب هالبرين في غضون تلك الفترة وسافرت معه عندما كان يحاول الإتصال بجماعات إشتراكية ممن كانت تعارض فكر ستالين وتعمل في نفس الوقت من أجل الثورة. إلا أن قلبي لم يستجب لما كانوا يسعون من أجله. فالمجتمع الشيوعي جذبني، ولكن كان لدي شكوكاً بشأن ماركس بالإضافة الى علمي لما قد حدث في روسيا. وأردت فهم سبب فشل الأمور دائماً. فالناس قد بذلت جهودها لمحاولة تحقيقها، بالإضافة الى وجود إشتياقاً لها لديهم، غير أن شيئاً ما يحول دون تحقيق مجتمعاً حقيقياً. وحاولت في ذلك الوقت إيجاد السعادة بكسب رزقي بالعمل الشاق، ولكنني كنت لا أزال أبحث عن شيئاً لم أقدر إيجاده. فكنت وحيداً الى حد ما.

وفي عام 1956 شعرت بأنه عليّ أن أقوم بمحاولة جديدة للعيش في إسرائيل. لم أكن مستعداً للمشاركة في الحرب أو العنف، ولكنني فكرت في محاولة العيش ضمن الكيبوتس. فوصلت هناك وقتما إندلعت أزمة قناة السويس. فقد إستولت إسرائيل وبمساعدة البريطانيين والفرنسيين على قناة السويس وتمكنت من قهر شبه جزيرة سيناء بأكملها. وقد سادت إسرائيل نشوة عارمة. وكانت أشبه بأزمنة الكتاب المقدس للملك داود عندما حازوا على إمبراطورية كاملة. أما بالنسبة لي فكان لها وقعاً معاكساً تماماً؛ فقد أصابني الحزن.

لقد طفت البلد كله بأرجائه إلا أن إكتئابي زاد أكثر وأكثر. وكنت على وشك الإنضمام الى أحد الكيبوتسات؛ وحتى أني أجريت مقابلة هناك. وكنت لا أزال قلقاً وغير مرتاح البال ويائساً الى درجة كبيرة. فغادرت إسرائيل متوجهاً الى ألمانيا بسبب عامل اليأس وليس القناعة. وفي طريقي، توقفت في روما. فكنت أود رؤية سبب إنجذاب الكثير من السواح الى تلك المناطق. بل أنني ذهبت حتى الى الفاتيكان، رغم أنني لم أكن مهتماً ولا قيد شعرة لا بالكاثوليكية ولا بالمسيحية. وفي أثناء وجودي هناك أُغلقت الأبواب علينا فجأة، وشاهِدْ العجبْ، فقد دخلوا

بالبابا محمولاً على كرسي نقال. ورفع يديه عالياً وتهستر كل أولئك الناس، لمجرد أن رأوا البابا. وقد كئبني ذلك الموقف. فقد أحسست بأن عملاً كهذا - مثل رفع شخصاً بهذا الأسلوب - هو أيضاً ضد كرامة الإنسان.

عندما وصلت الى ألمانيا في عام 1957، ذهبت الى ميونخ بدلاً من فرانكفورت. ولا أعلم السبب. فقد كنت متكئباً للغاية – حتى الى درجة الإنتحار في بعض الأوقات. فلم أطِقْ الإستمرار في رؤية الناس تكره وتحارب بعضها البعض. فإذا إنعدم التضامن بين الناس، فلا يوجد إذن أملاً للمستقبل، ولا هدفاً للحياة.

وتفاقم الوضع معي عندما ذهبت مرة للشرب في إحدى الليالي وسرق أحدهم جميع نقودي. فأصبحت معدم الحال على جميع الأصعدة. حتى أنني كتبت ملحوظة إنتحارية لسامي محاولاً شرح سبب عدم إستطاعتي مواجهة الحياة بعد الآن. إلا أني لقيت بعض التشجيع من قبل طبيبة نفسانية ونصحتني بإعطاء الأمر مزيداً من الوقت؛ حتى إنها أعطتني شيئاً من النقود لتمشية حالي بها. فقد إستطاعت أن تعيد إيقاد شيئاً في داخلي. وأخذتُ أستبشر أكثر بعد حصولي على شغل ومعاودتي على العمل مرة ثانية.

وبالرغم من إكتئابي فلم أتخلى عن البحث. فقد ذهبت الى دورات دراسية وشاهدت وثائقاً عن عهد هتلر. وأردت إستيعاب الكيفية التي حدثت فيها الدولة النازية (الرايخ الثالث Third Reich). وعندما نظم الحزب النازي الجديد مسيرة في ميونخ ذهبتُ لأتحسس وأرى شكل الأجواء هناك. فكان هناك نحو 1000 شخصاً، جالسين حول الموائد في قاعة جميلة. وكان أولئك القائمين على خدمة الموائد مفتولي العضلات ويتنقلون بين الموائد ويقدمون البيرة في أقداح خزفية. وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف الأناشيد الوطنية، والموسيقى العسكرية الحماسية، فتصاعدت المشاعر والعواطف. وإذا برجل ينتصب ليقول: " هل ترون ما قد فعلوه في دريزدن Dresden ؟ هل تسمعون الأكاذيب التي يقولها الناس عن الألمان ؟ هل ترون كيف يزدري المنافقون الكذابون بحضارة ألمانيا العظيمة وتراثها ؟ " لا أقدر أن أتذكر أقواله بالضبط إلا أنه حمّس الحاضرين في تلك القاعة. فنظرت حواليّ ورأيت الكثيرين من العاطلين عن العمل والبائسين وتمكنت من رؤية الكيفية التي تجري فيها الأمور. فقد أعطاهم ذلك الرجل أملاً، وأعطاهم إحساساً بالإنتماء. ويمكن لأي شخص، وتحت الظروف نفسها، أن يَنْجَرَّ الى "مجتمعٍ" كهذا.

15. إنبثاق الأمل

من بين الدورات الدراسية التي خضتها في ميونخ لملء وقتي كانت دورة تعليم لغة الإسبرانتو Esperanto (وهي لغة دولية مبتكرة). فصرت أقرأ صحفاً متعددة بلغة الإسبرانتو وتعرفت على جماعات متعددة التي يهمها مواضيع السلام والعدل. وقد قرأت في إحدى الصحف إعلاناً من رجل يرغب بالمراسلة مع أي شخص يهمه أن يحيا حياة مؤسسة على تقديم ما بإستطاعتك وتلقي ما تحتاجه. فراسلته وجاءني الرد لمراسلة شخصاً في إنكلتره إسمه ديريك فوكس. فأخبرني عن مجتمعات جماعة الـ برودرهوف Bruderhof (وهي كلمة ألمانية تعني مكان الأخوة) والذين يعيشون حياةً كلية المشاركة، وقال لي عن وجود واحد من هذه المجتمعات في ألمانيا، فقررت زيارتهم في تموز من عام 1958.

وكنت لا أزال أصارع بإستمرار لمعرفة السبب الكامن وراء عدم تمكن الناس من العيش في مجتمع يملئه التعاضد والتضامن. فلماذا تزيغ محاولات الناس حتى عندما يريدون العيش ضمن مجتمع أخوي أيضاً ؟... كنت متشككاً بالموضوع. وقد جعلني الجانب الديني من مجتمع

الـ برودرهوف أنفرُ. بالإضافة الى أنني لم أكن مـهـتـمـاً بجـزيرة من الأخوّة وسط بحر من الظلم والكراهية مجرد لأنهم يحاولون إيجاد شيئاً من السلام والرضى الشخصي. فكنت أبحث عن حـلاً شـافـيـاً للبشرية جمعاء. وفي الوقت نفسه، فأنا شخصياً كنت سقيم الحال، لأنني لم أجد ما كنت أبحث عنه لسنوات وسنوات. فـقـلت في نفسي: " ربما سأتعلم شيئاً ما من جماعة تحاول العيش سوية. وربما سأتمكن من فهم سبب عدم تحقيق مثاليات العدل والمساواة في مختلف الثورات."

كنت قلقاً من الأمر عندما أفكر في الجانب الديني والمسيحي، إلا أني أردت أن أنظر إليهم كبشر. فـقـلت لنفسي: "رجاءً، لا تجحف بحقهم، ولا تـدين الناس بسرعة. وكُن منفتحاً عندما تذهب هناك."

وقد تم إمتحان ما عزمت عليه منذ أول مواجهة. فقد وصلت هناك يوم أحد بعد الظهر، وأول شخص لقيته كان رجلاً يمشي ذهاباً وأياباً أمام المنزل وموازناً عصا على رأسه. فسألته: " هل هذه هي الـ برودرهوف "، فأكد لي ذلك دون أن يرفع نظره عن العصا. أما هو فداوم بالمشي ذهاباً وأياباً، ذهاباً وأياباً. فبدا الأمر لي بوجود بعضاً من الناس الغريـبي الطبائع هنا، أو ربما لديهم مسّ من الجنون بعض الشيء. إلا أنه رغم هذا فقد دعا هذا الرجل غيره ليضيفني ولنشرب الشاي.

لاحقاً، كان هناك سيركً للأطفال، وتبين بأن الرجل خارج المنزل كان يتمرن على دوره. فتوضح لي سبب تصرفاته الغير عادية، إلا أن الأمر بأكمله كان لا يزال غريباً نوعاً ما. فكان كل همي هو مصير البشرية أما هنا فلم يَبـدُ أن أحداً كان يـعـير أيه أهمية لأي شيء أكثر جدية غير سيركً للأطفال.

وبعد إنتهاء الـ سيرك، دنا مني الناس وسألوني عن الشيء الذي كنت أبحث عنه، وعن سبب مجيئي. وفي النهاية، مكثت هناك عدة أسابيع. وفي آخر يوم من زيارتي طلب مني الناس أن أخبرهم عن رأيي بالزيارة أثـناء تـناولنا وجبة طعام. فـقـلت لهم ما إعتدت قوله: " أنا أبحث عن أخوّة. أبحث عن جواب شافٍ لحاجات البشرية. وأتشوق له، ومستعد لبذل حياتي له." لم أستطع الإتفاق مع أفكار هؤلاء الناس، إلا أنهم أبدوا إهتماماً لما كنت أبحث عنه وهم أنفسهم، وحسبما كان واضحاً، كانوا يبحثون عن شيء ما.

فرجعتُ الى ميونخ، لكنني كنت أتوق الى الرجوع ومعاودة زيارتي الى جماعة البرودرهوف – لأنني كنت لا أزال أحاول إكتشاف ذلك الشيء الذي يمنع الناس من العيش سوية في سلام. فكتبت في الرسالة التي طلبت فيها معاودة زيارتي لهم: " لقد ظمئتُ أن أتحسس في قلبي، ولو مرة واحدة في حياتي، ذلك الجواب الشافي لأبلغ حاجات البشرية، حتى وإن كانتْ لمجرد دقيقة واحدة، فستكون كافية بالنسبة لي. " ولا أريد نسيان تلك الجملة أبداً، لأن ذلك كان شغفي في حينها، ومنذ ذلك الوقت إختبرت أشياءً أكثر من ذلك.

وجئت في زيارة ثانية في أيلول 1958. فرحّب بي أعضاء ذلك المجتمع بحرارة الى جماعتهم. كنا نعيش ببساطة شديدة: فلم تكن هناك تدفئة والطعام كان شحيحاً. وكان لدينا قطعة صغيرة من الجبن وشيئاً من الخبز لإقتسامه فيما بيننا لوجبة الفطور، وحتى قد طلب مني المسؤول عن شراء الأطعمة مرة لأقرضهم شيئاً من المال، فأعطيته كل ما كان لدي.

وبدأت أحب أولئك الناس وأردت البقاء هناك مدة أطول، غير أني كنت أتكلم بكل صراحة عن كل ما كنت أشعر به. ولقد إحترمتهم كمسيحيين وإحترمت إيمانهم – فلم أعتاد على الإزدراء بمعتقدات الناس أبداً - ولكنني تساءلت عن سبب عدم قدرتنا على العيش من أجل العدل بدون الإيمان بالله. كما أعتبرتُ مشاركتي بأية فعالية دينية سخرية ورياء. فكلما رتلوا تراتيلاً ذات فحوى دينية إلتزمت الصمت. ولم يكن الأمر سهلاً دائماً عليّ، لأنهم كانوا يرتلون بإستمرار – وبالأخص عندما يقترب عيد الميلاد Christmas – ولكن موقفي كان مبدئياً. كما أنني رفضت الإشتراك بأداء تمثيلية مشاهد مغارة الميلاد للسبب ذاته. أما عندما كانت الأغنية ليست دينية، إشتركت بها بكامل الحيوية. أنا بالحقيقة متعجب على أنهم سمحوا لي بالبقاء عندهم. فقد كنا جماعة صغيرة مع العديد من الضيوف الزوار، وحتماً أنني قد أرهقت وكلفتُ كل واحد منهم الكثير من الصبر بسبب طرحي للكثير من الإستفسارات مناقشاً ومشككاً في الركائز الدينية لمجتمعهم.

وبالفعل فقد جاء إليّ أحدهم بعد فترة قصيرة من عيد رأس السنة الميلادية قائلاً : " لماذا تتجادل كثيراً، يايوسف، حول الجوانب المختلفة لحياتنا المشتركة سواءاً أكانت الأيديولوجية أو الإيمانية ؟ أتبحث عن الأخوّة ؟ فإذا كان الأمر كذلك، تعال معنا وعِشْ وفقاً لها. ولا تتكلم فقط عنها." فكانوا يريدونني أن أشترك بصورة فعالة معهم بدلاً من التواجد كمراقب وناقد. وقد بدا كلامه معقولاً لي فقلت أنني أود ذلك. فسأقدر تجربتها بنفسي حين أعيش وفقاً لها، ولكن ما إختبرته لاحقاً أصابني بصدمة كبيرة.

فطبقاً لوجهة نظري الماركيسية كلها، كنت مقتنعاً بأن الظروف الخارجية تقرر سلوك الناس. وكنت أفترض بأن المجتمع المثالي سيضمن أخوية مثالية. وطبعاً، بدأتْ الشكوك تساورني في ذلك الوقت، لأن جميع الجهود لخلق مجتمعاً مثالياً كهذا ولحد الآن قد باءت بالفشل تماماً. ولكن عندما حاولت العيش في مجتمعاً أخوياً، وجدتُ بأن هناك شيئاً في داخلي كان يعارضها. وحتى ضمن الظروف التي تبدو مثالية كان هناك شيئاً ما يقف عقبة في طريق الأخوية الحقيقية، وفي طريق التعاضد والتضامن الحقيقي: فكلٌ من الـ أنا (أي الذات) والإرادة الذاتية وسرعة الزعل لم يكونوا نتيجة لتأثيرات خارجية؛ إنهم كانوا في صميم كياني بالذات. فكانت هذه صدمة لي . " فهل ضاع كل بحثي هدراً ؟... ماذا عليّ أن أفعل الآن ؟..." فقد أصبحت في مفترق طرق.

وفي ذروة إضطرابي الداخلي، زارنا رجل يدعى هاينريتش آرنولد Heinrich A rnold والذي جاء من إحدى مجتمعات برودرهوف الأخوية في أمريكا. وكان قد عاش وإختبر الحياة المشتركة لسنوات طوال وكان متحمساً كثيراً للقائي والتحدث معي. فحكيت له ما كنت أبحث عنه وما أشتاق إليه. أما هو فكان يستمع إلي فقط وفي غاية التفهم والرأفة؛ حتى كانت عينيه تغرورق بالدموع أحياناً. وقد كتب لي لاحقاً من أمريكا : " يايوسف، أنا لديّ ثقة وإيماناً بأننا سنصبح أخوة في مجتمع أخوي واحد يوماً ما." أما أنا فقد تعجبت كيف له أن يقول لي ذلك لأني كنت لا أزال بعيداً كل البعد عن تقبل الأساس المبنية عليه حياة جماعة الـ برودرهوف. فكنت ما أزال ملحداً الى درجة كبيرة؛ ولم أكن مستعداً لقبول أي شكل من الإعتقادات الدينية التي لم أستطع إثباتها منطقياً.

وقد تأكدتُ من أن يوم عيد العُنصُرة في عام 1959 كان نقطة الإنقلاب في حياتي. فقد جاء الكثير من الناس، أغلبهم طلبة، الى مؤتمر عطلة نهاية الأسبوع والذي دعت إليه جماعة البرودرهوف. وكان هاينز فون هومير Heinz von Homeyer الكاتب الألماني المعروف لكتاب "*الجبل المشع*" هو المتكلم الرئيسي. وطبعاً كان عيد العُنصُرة إحتفالاً دينياً (وهو ذكرى يوم حلول الروح القدس على جماعة المسيحيين الأوائل) وكانت لي نظرتي الخاصة المتحفظة حياله. فهاهنا أيضاً كنت مراقباً أكثر من مشاركاً. وفي إحدى الأمسيات إحتدم النقاش بين مجموعتين متعارضين من الزوار لغاية أنهم وصلوا الى طريق مسدود، حسبما كان يبدو. ولا أتذكر موضوع نقاشهم بالضبط، لكنهم، وفي نهاية الأمر، بدأ بعضهم يصرخ على بعض. حينئذ وقف رجل وقال: " أيها الأعزاء، أريد ذِكْر شيئاً. هناك قوتين روحية في هذا العالم. فهناك تلك القوة الروحية التي تؤتي بالناس بعضهم الى بعض وهناك تلك القوة الروحية التي تمزق الناس

إربـاً بعضهم عن بعض. فإلى أية قوة تريدون أنتم الإستماع إليها في قلوبكم ؟..." ثم جلس. وفجأة حدث تغير في أجواء تلك الغرفة. فأصبح الناس قادرين على التواصل فيما بينهم، وفتح الناس قلوبهم وصار بعضهم يتكلم بصراحة وأمانة مع بعض. وإنهارت تلك الجدران التي كانت بين الناس مجرد قبل ثوانٍ خلت.

فكان هناك شيئاً ما يحدث في تلك الغرفة لم أقدر على سبْرِ غـَوّره. فـأثـّر ذلك الشيء فيّ آنذاك وإستوقفني. ولا أعلم سبب حدوثه في تلك اللحظة، إلا أن شيئاً ما قد خـَبـَطَ قلبي. وفي تلك اللحظة ذاتها شعرتُ بواقعية قوة المسيح والذي كان يريد وعلى مرّ العصور، أن يُجـَمـِّع شعباً في وحدة وفي أخوية. والى هذه الرؤية نفسها كانت الأمة اليهودية قد دُعيتْ لتمثيلها، لكيما تصبح مثالاً صالحاً لطريق جديد من الحياة في هذا العالم – طريق جديد تماماً. وفي تلك اللحظة ذاتها، غـمرتـني تلك القوة كلياً وغـيـّرت حياتي.

كان ذلك تماماً عكس الكاريكاتير المسيحي الذي رأيته في المذابح في بولنده، وفي القداديس المسعورة في روما، ولدى أولئك المسيحـيين الراضين عن أنفسهم في مناطق كثيرة من العالم، والذين يسعون الى خلاصهم الذاتي فقط والذين إضطهدوا شعبي. لم تكن تجربة دينية شخصية لطيفة؛ فقد وجدت الجواب الشافي لحاجات البشرية الصميمية الملتهبة – والمفتاح للسلام الحقيقي والعدل الحقيقي والذي يتشوق جميع الناس إليه. فكان منطقي المتصلب، ولغاية تلك اللحظة، يـستبعد أيّ بـُعـدٍ روحي كهذا. ولكن منذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يكن لديّ أي شكٍ. فقد وجدت ما كنت أبحث عنه. فهذا هو الجواب الشافي الوحيد لحاجات البشرية، ألا وهو أن يفتح الناس أنفسهم لروح الله الذي يرمي الى تجميع شعباً يعيش وفـقـاً لمشيئته.

تعجبني لعبة الشطرنج. فغالباً ما يستغرقك بعض الوقت قبل إجراء أية نقلة فيها. وتراك تـنظر جميع الإحتمالات وبعدئذ تقرر الحركة. ويبدو الأمر لك منطقياً بالتمام لأن كل شيء قد تم التفكير به ملياً. لكن خصمك في بعض الأحيان يقوم بنقلة معينة لم تكن قد حسبت حسابها أبداً؛ نقلة تسير ضد منطقك بأكمله. وستدرك حينها بأن كل ما أنجزته كان مبنياً على منطق باطل. فعليك أن تبدأ من نقطة الصفر، كما لو أنها مباراة جديدة تماماً.

" لقد ظمئتُ أن أتحسس في قلبي، ولو مرة واحدة في حياتي، ذلك الجواب الشافي لأبلغ حاجات البشرية، حتى وإن كانت لمجرد دقيقة واحدة، فستكون كافية بالنسبة لي. "

نعم، لقد شهدتُ وإختبرتُ بأنه من الممكن للرجال والنساء والأطفال واليهود والعرب والألمان والأفريقيين والأمريكيين والآسيويين أن يعيشوا سوية في سلام وأخوّة. وكذلك يمكن التغلب على قوى الشر التي تمزق الناس أرباً بعضها عن بعض. ولا أزال أحب أن أهِبَ حياتي كلها لهذا الإشتياق ولإتمامه.

ملحق

*"**يَا بَيْتَ يَعْقُوبَ هَلُمَّ فَنَسْلُكُ فِي نُورِ الرَّبِّ."** (إشعياء 2: 5) دعونا نتبع النور الإلهي بكل قوتنا بإرتعاش ٍ، ولكن بتصميم العزيمة. فإذا ما فعلنا ذلك فربما سنكون مثالاً صالحاً، ورمزاً للآخرين، وهروباً من الظلمة والى النور. فلنطرح جانباً تباهينا وتباهي غيرنا الفارغ على أننا الشعب المختار. دعونا نُظهِر إختيارنا هذا عن طريق الأعمال الصالحة في الحياة اليومية، واضعين موضع التطبيق ما قد دعانا أبانا السماوي إليه؛ وهي أن نكون قدوة ورونقاً لجميع الأمم، ولجميع الناس.*

ناتان هوفشي Natan Hofshi

كأحد أعضاء مجتمع الـ برودرهوف (وحالياً تعرف هذه الجماعة بإسم مجتمع الكنيسة الأخوي الدولي Church Community International)، فقد رمى يوسف نفسه الى هذه الحياة الجديدة، ليضع في حيز التطبيق الأجوبة التي وجدها. ولكن أنباء الصراع المستمر في إسرائيل أثقلت كاهله، الى جانب ذكرياته المؤلمة عندما إشترك هو أيضاً في ذلك الصراع في السنوات السابقة. فهو لا يزال يرى في مخيلته وجوه أهالي مدينة اللد التي رحّلتهم وحدته العسكرية عن ديارهم، وأيضاً ذكرياته المبكرة عندما هو نفسه تم ترحيله عن داره في بولنده.

ولكنه لاحقاً وفي عام 1997، أي خمسين عاماً بعد تلك الأحداث، إتصل بأحد العرب الإسرائيليين من سكان اللد، رجل يدعى يعقوب منير. فبعد شيئاً من المراسلة سافر يوسف الى اللد وقابل يعقوب. وتمكن يوسف من طلب المغفرة من يعقوب على ما جرى وكذلك الإحساس بمحبة يعقوب له. وقضى كل منهما وقته مع الآخر يسردان تجاربهما عن تلك الأيام التعيسة في عام 1948، وقد تصالحوا مصالحة شخصية تامة. فمن ناحية، كانت هذه خطوة صغيرة، ومجرد قصة واحدة أمام السيل الطافح من التفجيرات الإنتحارية وغارات الإنتقام. ولكن وكما قال يوسف: " ربما سلسلة من ردود الأفعال ستبدأ. فالعنف يستدرج عنفاً، إلا أن الشروع في عملية مغايرة، عن طريق مدّ يد المصالحة، يمكن لها أن تـنـتـشـر. وكل واحد فينا يمكنه عمل ذلك في علاقاته وتفاعله مع الآخرين، بطلب المغفرة ومحاولة بناء عالم أفضل."

ولدى يوسف وزوجته روث سبعة أولاد: حنّه وشولامِت وحايم وايلداد وتيكفه وإفرايم ومينا. وكلهم يسكنون في المجتمع الأخوي لـ دارفل برودرهوف في إنكلتره. ويوسف ضليع جداً في ترويج المغفرة والمصالحة بين الناس. والأهم من كل شيء، فهو يعمل لإبقاء تلك الرؤية حيّة، وهي أن هناك طريقاً آخراً، وإن خَلَقَ الله من رجال ونساء يمكنهم العيش معاً بسلام.